

التعريب



مَجَلَّةُ نَصَفِ سَنَوِيَّةٍ مُحَكَّمَةٌ تُصَدَّرُ عَنِ الْمَرْكَزِ الْعَرَبِيِّ لِلتَّعْرِيبِ وَالتَّرْجُمَةِ وَالتَّأْلِيفِ وَالنَّشْرِ بِدَمَشَقَ



المنظمة
العربية
للتربية
والثقافة
والعلوم

12

رجب 1417 - كانون الأول (ديسمبر) 1996 م

السنة السادسة
العدد الثاني عشر

التعريب



التعريب

مجلة نصف سنوية

العدد الثاني عشر

رجب 1417 - كانون الأول (ديسمبر) 1996

المدير المسؤول: الأستاذ الدكتور غدير ابراهيم زيزفون

رئيس التحرير: الأستاذ الدكتور محمود السيد

مجالات اهتمام المجلة

تتركز اهتمامات المجلة على الإسهام في تحقيق أهداف المركز في مجال تعريب التعليم العالي في الوطن العربي وتطويره، ومتابعة الجديد مما ينشر في ميادين المعرفة في العالم للتعريف به وتعريب الجيد الملائم منه، وكذلك ترجمة روائع الفكر العربي في العلوم والآداب والفنون إلى اللغات الأجنبية العالمية. وفي هذه الأطر تفتح المجلة صفحاتها للدراسات والبحوث الجادة والأصيلة فكرياً وموضوعاً في أحد المجالات التالية:

- * تعريب التعليم العالي في الوطن العربي.
- * بحوث ودراسات معربة أو مترجمة.
- * التعليم العالي في الوطن العربي وتطويره.
- * من أعلام الحضارة العربية والإسلامية.
- * عروض للجديد من الكتب والبحوث والرسائل الجامعية.
- * الإعلام عن الأنشطة العربية والدولية في مجال أهداف المركز.

إن مضامين المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي

أصحابها ولا تمثل بالضرورة رأي المنظمة أو المركز

يسمح باستعمال ما ورد في هذه المجلة من مواد بشرط الإشارة إلى مصدرها

التعريب: مجلة نصف سنوية محكمة تصدر عن المركز العربي للتعريب والترجمة

والتأليف والنشر بدمشق . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

دمشق . ص.ب: 3752 . هاتف 3334876

ع/15/12/1996

السنة الأولى: 1991 . دمشق

التنفيذ: قسم الوثائق والنشر في المركز العربي للتعريب بدمشق

بلاكات وتنفيذ: يوسف أيوبية - دمشق هاتف 3332586

في هذا العدد

الصفحة

* بحوث ودراسات في التعريب

- إشكالية تعريب التعليم العالي 11
أ. د. محمود أحمد السيد
- وجهة نظر حول السياسة الثقافية وفعل التعريب 41
أ. انطون مقدسي

* بحوث معربة أو مترجمة

- تكوين نظرية أقسام الكلام وبنائها في العرف النحوي العربي 61
د. سام عمار
- كيف يبطل فيروس الإيدز المصايد التي نصبت له 81
د. رويدة أبو سمرة

* بحوث ودراسات في التعليم العالي

- التأهيل التربوي للمرشحين للتدريس في المرحلة الجامعية 91
أ. د. علي القريشي

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

*** من أعلام الحضارة العربية والإسلامية**

● تاريخ الكتابة عامة، والعربية منها خاصة..... 107

أ. صلاح الدين الزعبلوي

● عادل زعيتر وفن الترجمة 123

أ. د. يحيى جبر

*** عروض للجديد من الكتب والرسائل الجامعية**

فن البحث العلمي 143

كتاب صادر عن "دار اقرأ" في بيروت

ترجمة الأستاذ زكريا فهمي

*** من أنشطة المركز خلال النصف الثاني من عام 1996 149**

الافتتاحية

بقلم الأستاذ الدكتور

غدير إبراهيم زيزفون مدير المركز

استناداً إلى الاستراتيجيات التي وضعتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم "استراتيجية تطوير التربية العربية، استراتيجية تطوير العلوم والتقانة، الخطة الشاملة للثقافة العربية" والتي تؤكد جميعها أن اللغة الأم تشكل الأساس الراسخ لتطوير العلوم واستيعاب المعارف ونقلها وتوليدها ونشرها على أوسع نطاق، وعليها يتوقف الأمن القومي الشامل.

وانطلاقاً من أن تعريب الفكر مطلب قومي واجتماعي يحافظ على هوية الأمة، ويحول دون امحاءها، فإن العمل الجاد والدؤوب يظل شعارنا في تحقيق الأهداف المرسومة لمجلتنا "التعريب"، إسهاماً منا في بلورة موضوع التعريب على نطاق الساحة العربية، وتعزيزاً للانتماء إلى هذه الأمة، وإحياءاً لتراثها الغني، وإظهاراً للمستجدات في ميادين المعرفة، سعياً إلى تأصيل العلم واستنباطه عربياً، وإرساءً لنهضة تقانية وعلمية عربية راسخة.

وإذا كان لتحقيق التعريب مستلزمات بعضها مادي وبعضها الآخر معنوي، فإننا لنؤمن أعمق الإيمان أن الإحساس القومي وعزيمة الروح تأتيان في المقدمة، وأنه قد آن لنا على نطاق الساحة

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

العربية أن نجسد إيماننا بأمتنا . ماضياً مجيداً وواقعاً صامداً ومستقبلاً مشرقاً . أداءً فعالاً في الارتقاء بواقع التعريب والعمل على أن تتبوأ لغتنا العربية المكانة التي هي جديرة بها في نظامنا التربوي في مختلف مراحله، وفي مرافق حياتنا العربية كافة وعلى امتداد وطننا العربي.

وإننا لندعو مجدداً علماءنا وباحثينا العرب أن يغنوا مجلتهم "التعريب" بثمرات عقولهم، وأن يسهموا في تقديم لبنات تتوضع في صرح بنيان التعريب، مؤدين بعضاً مما لأمتهم عليهم من حقوق.

وها نحن أولاء نقدم العدد الثاني عشر من المجلة، آمليين أن يجد فيه باحثونا وقرأؤنا العرب بعضاً من بغيتهم، وأن يكون فيه الفائدة المرجوة، راجين أن يمدونا بملاحظاتهم القيمة التي سيكون لها كل التقدير في تطوير عملنا.

والله ولي التوفيق

بحوث ودراسات
في التعريب

إشكالية تعريب التعليم العالي

أ.د. محمود أحمد السيد

نحاول في هذا البحث أن نتعرّف مسألة تعريب التعليم العالي في الوطن العربي، وأن ننتبين التعريب مفهوماً وأهدافاً وأشكالاً، موضحين حجج المؤيدين له والمعارضين والمترشّين، ومشيرين إلى مستلزمات التعريب حتى يحقق الأهداف المرسومة له.

أولاً: التعريب مفهوماً وأهدافاً:

التعريب لغة مصدر للفعل عَرَّبَ، وعَرَّبَ بمعنى أبان وأفصح، وعَرَّبَ عن الرجل إذا تكلم بحجته، وعَرَّبَ منطقه إذا هدّبه من اللحن، ويقال: عَرَّبَتْ له الكلام تعريباً إذا بينته له، وعَرَّبه: أي علّمه العربية، وتعريب الاسم الأعجمي أن تتقوه به العرب على منهاجها⁽¹⁾.

ولقد تدرج لفظ "عَرَّبَ" بهذه المعاني المتقاربة بعض الشيء منذ القديم إلى معنى ترجمة النصوص الأجنبية ونقلها إلى العربية، وتعليم العلوم الأجنبية بالعربية.

والتعريب اصطلاحاً إيجاد مقابلات عربية للألفاظ الأجنبية لتعليم اللغة العربية واستخدامها في ميادين المعرفة البشرية كافة.

ويقصد بالتعريب حالياً استعمال اللغة العربية لغة قومية في الوطن العربي للتعبير عن المفاهيم، واستخدامها في التعليم بجميع مراحلها والبحث العلمي بمختلف فروعه وتخصصاته واستخدامها لغة عمل في مؤسسات المجتمع العربي ومرافقه كافة⁽²⁾.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

ومنهم من يوسع دائرة التعريب ليرى أن للتعريب مفهوماً جوانبَ فنية وقومية واجتماعية وسياسية وحضارية، وقد يتداخل مفهوم التعريب مع مفهوم الترجمة فتعرض قضايا فنية حول طبيعة اللغة وطاقتها الدلالية والاستيعابية وآلياتها الذاتية وحول إعداد المترجمين وتدريبهم... إلخ، وفي هذا الإطار تكون قضية التعريب قضيةً علاقات فكرية وثقافية مع اللغات الأخرى أي قضية عربية أجنبية.

وقد يعني التعريب دعم الوجود العربي والوحدة العربية بمعنى شمولية استعمال اللغة العربية في الوطن العربي نفسه على المستوى الجغرافي والقطاعي لقطاع التعليم والبحوث والإدارة وتوحيد المصطلح العربي.

وقد يعني التعريب تعريب لغة الإدارة الرسمية بما في ذلك أنواع النشاط المالي والتجاري والاقتصادي، وقد يعني تعريب لغة التعليم والمجتمع معاً في بعض الأقطار العربية التي كانت رازحة تحت الاحتلال الأجنبي واستقلت حديثاً.

والتعريب من جهة أخرى قد يعني كل ما يستوعبه المجتمع العربي ويحتويه في نسج حياته مما يتلقاه بأي صورة من صور التلقي الفكري والمادي والاجتماعي من أهداف وقيم ووسائل، والانطلاق منه كواقع جديد للتفاعل الجدلي إنتاجاً وعلاقات، أخذاً وعطاءً، تأثيراً وتأثراً، من رؤية متكاملة للحياة وقدرة ذاتية على ممارستها.

والتعريب في المستوى المباشر يعني سيادة اللغة العربية على ساحة الوطن العربي بما يوحد المشاعر العربية، ويجمعها حول تاريخها وواقعها ومصيرها مما يجعله عاملاً جوهرياً في الخروج من دائرة التخلف السياسي المتمثل في التجزئة إلى حرية الوحدة العربية في الصورة التي تؤصل دور الأمة العربية التاريخي والمصيري.

والتعريب في معناه الأكثر شمولاً يعطي للوحدة العربية مضمونها الحضاري المعاصر ويعينها على كسر طوق التخلف والتحرر من أنواع التبعات الاقتصادية والتقانية "التكنولوجية" والثقافية⁽³⁾.

ومن هنا يكون للتعريب هدفان:

أولهما: خلق شخصية إبداعية عربية تمتلك القدرة الذاتية على إنتاج العلم وصناعة التقنية "التكنولوجيا"، وهذه القدرة ليس مناطها المعرفة العلمية وحدها، ولكن المناخ العلمي الذي يستدعي عدداً من الظروف المواتية لتملك القدرة الذاتية، وهي ظروف متعددة الجوانب، منها ما هو سياسي، ومنها ما هو تشريعي، وما هو تنظيمي، وما هو اجتماعي، وما هو مالي، وما هو في الأساس علمي.

ثانيهما: هو القدرة على المشاركة والتفاعل من منطلق متميز، ذلك أنه يمكن للأمة العربية أن تسهم في الحضارة العالمية المعاصرة متجاوزة عقبات التخلف بضمّ قدراتها البشرية والعلمية والمادية واستنابات علمها عربياً، وتوحيد استراتيجياتها تنموياً، وأن تضع تقانة "تكنولوجيا" عربية، والسبيل إلى ذلك هو الإنسان الذي يتلقى علوم العصر بلغته، يتعلم ويعلم ويبحث بها، حتى يكون ذلك إغناء للثقافة العربية بين المتخصصين والمتعلمين وجماهير الشعب بما يوسع من قاعدة المشاركة وصنع الوعي بالتقدم ودعم الشعور بالحاجة إليه والإسهام في تطويره⁽⁴⁾.

ونخلص إلى القول إن التعريب لا يعني تمجيد الماضي، بل هو تأكيد للهوية، وتطلع إلى المستقبل في انطلاقة إبداعية جديدة تتفاعل مع الواقع وتفعل فيه، وتواكب التطور الفكري والعلمي، وتعمل على المشاركة في صياغة المستقبل الإنساني في أبعاده العلمية والتقنية من خلال القيم الروحية والإنسانية التي كانت الأساس الراسخ لحضارتنا ونظرتنا إلى العالم⁽⁵⁾.

كما أن التعريب لا يمكن أن يعني الانغلاق ونحن في عصر التفاعل العالمي على مختلف المستويات وتنوع الوسائل، إذ إن الدعوة إلى الانغلاق منافية لجوهر الحضارة العربية الإسلامية.

ثانياً: أين تقع الإشكالية؟

غني عن البيان أن لكل أمة لغة تعبر عن هويتها القومية وشخصيتها الحضارية، وأن لغتنا العربية رمز لكياننا القومي وعنوان لشخصيتنا العربية، وهي لغة قرآننا الكريم وحضارتنا العريقة

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

الضاربة الجذور في الأعماق، وهي مستودع تراثنا الفكري وموحدة المنهجية الفكرية بين أبناء الأمة ماضياً وحاضراً وتوجهاً نحو المستقبل. بها نتفاهم، ونعبر عن حاجتنا وتطلعاتنا، وبها نفكر، وقد وحدت بين العرب في مواضي الحقب بوساطة القرآن الكريم، إذ لولا ذلك الكتاب العربي المبين الذي نزل به الروح الأمين على قلب الرسول العربي الكريم آية لنبوته وتأييداً لدعوته ودستوراً لأمته لكان العرب بدداً.

وما دامت اللغة العربية هوية المجتمع العربي رافقته منذ طفولته وعبرت عن مسيرته في قوته وضعفه، في توثبه وانحصاره، في حضارته وتخلفه كان الحفاظ على هذه الهوية واجباً مقدساً، وكان الحرص على تبنيها والاعتزاز بها أمراً لازماً بكل المعايير والمقاييس دينية كانت أو قومية أو وطنية، وأن الإشكالية تقع في إهمال هذه اللغة واعتماد لغة أخرى مكانها في التدريس الجامعي، ولا تتجلى الإشكالية في التعريب لأنه الطريق الطبيعي والأمر البديهي وإنما في عدم استخدام العربية أداة للتواصل بين أبناء الأمة في معاهدهم وجامعاتهم، فقد "ابتلينا . كما يقول كمال يوسف الحاج في كتابه في "فلسفة اللغة" . بإهمالنا للعربية، بغرورنا أن سواها أعمق وأبهى وأفتى وأقرب إلى مقومات الحضارة الحديثة، أسمعنا هذه المعزوفات فابتلينا بعقدة التكابر حيال لساننا، وبعدة التصاغر حيال لسانهم، والنتيجة صغرنا في أنفسنا دون أن نكبر في أنفس الحاكمين حتى صرنا لا نتوخي لبيان عربي ولا لبلاغة عربية"⁽⁶⁾.

ويتابع قائلاً: "لا أبالغ إذا قلت إن معظم مشكلاتنا الاجتماعية سببه التنازل عن واحدنا الأحد، عن تاريخنا الواحد، عن لساننا الواحد، عن أرضنا الواحدة، عن تراثنا الواحد، عن إرادتنا الواحدة. وليس في العالم شعب يريد إدخال عفاف على عفافه، إن كل أمة عزيزة الجانب، أبية الخلق، ثابتة الإرادة، تقدم لغتها على لغة سواها، ولا تتناول أشياء الأخرى إلا من بعد أشياءها القومية، أي من وراء حدودها الوطنية"⁽⁷⁾.

فاللغة رمز للكيان القومي وأمانة على شخصية الأمة وذاتيتها الثقافية، و"على التعليم العالي أن يقوم على أنه محور أساسي لرسالته، على عملية تنمية الذاتية الثقافية التي تمثل الخصوصية

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

الحضارية للمجتمع والتي هي مناط سائر أنواع التتميات الأخرى، والتي هي بصفة خاصة سبيل الأمة في العطاء الحضاري للمجتمعات الأخرى، وأسلوب التبادل الخلاق مع الآخرين ويتمثل ذلك في الذاتية الثقافية، في خصائص المجتمع الأساسية وفي تراثها الحضاري وفي مقدّماتها اللغة القومية التي ليست شكلاً ولا رمزاً، ولكنها مضمون وطريقة تفكير ومستودع حضارة⁽⁸⁾.

وثمة من يرى أن لمشكلة التعريب وجهين أولهما كون لسان أجنبي يحلّ محلّ اللسان الأصلي، وثانيهما كون هذا اللسان الأصلي منقطعاً عن اللغات بسبب جمود المجتمع⁽⁹⁾.

إنهما وجهان لعملة واحدة، ويبدو من السهولة أن يخفي الأول الثاني، ولكن لا يمكن سبر عمق مشكلة التعريب إذا لم نميّز بينهما نظرياً على الأقلّ، فالوجه الأول ظاهرة اجتماعية تنشأ عن القهر والاحتلال الأجنبي بحيث يصبح اللسان الدخيل عنواناً للنقد والعلم والأناقة، ويصبح اللسان الأصلي سمة كل ما هو بلدي متخلف، فنرى الموظف يخاطب الزبون بلسان أجنبي ليظهر نفوذه، والأم تخاطب ابنها باللسان نفسه للإعلان عن انتمائها إلى طبقة راقية، والطالب يقحم الكلمات الأجنبية ليثبت ثقافته العصرية إلى آخر ما هنالك من المظاهر المؤسفة المضحكة التي نلاحظها اليوم في المغرب العربي وفي بعض الأوساط المشرقية على حدّ تعبير الباحث المغربي عبد الله العروي.

ومن هنا كان للدعوة إلى التعريب في هذا المجال مغزى سياسي واضح، إنها دعوة إلى الوحدة الوطنية ومحاولة لإيقاف تيار خطر يقسم المجتمع إلى تقسيم لغوي وثقافي، فالتناقض الذي كان موجوداً أيام الاستعمار بين الجالية الأجنبية والشعب المستعمر يتحوّل إلى تناقض بين النخبة الحاكمة ذات النفوذ الاقتصادي وباقي الطبقات المحرومة، وفي هذا الوضع ما فيه من تبعية اقتصادية وسياسية للمجتمعات المتقدّمة.

والوجه الثاني للمشكلة يربطه بالمستوى الحضاري، إذ إن اللسان القومي يزدهر أو يضمحل بحسب تجدد اللغات الاصطلاحية وتعدد الرموز العلمية.

ويشخص العروى مشكلة التعريب حالياً في الوطن العربي من خلال ردّه على التساؤل: ولماذا لا نرضى بما يؤول إليه التطور تلقائياً أي الازدواجية اللغوية؟ لماذا لا نرحب بحالة مثل حالة الهند التي أحرزت درجة لا بأس بها من العلم والتقانة "التكنولوجيا"؟ هل هناك مصلحة حقيقية في طرح قضية التعريب سوى تعلق عاطفي بالتراث وسوى مصلحة فئة قليلة من الفقهاء والأدباء والنحاة الذين لا يتقنون شيئاً غير اللسان القديم؟

فيقول: "إن الاعتراض يبدو وجيهاً، ويدفع المرء إلى كثير من التساؤل، لكن لدى الفحص يتبين أنه مبني على مغالطة، على افتراض شيء لا وجود له في الواقع، يكون الاعتراض مقبولاً لو كان يتنافس بالفعل مشروع التعريب في الوطن العربي ومشروع مضاد يستهدف تطوراً ثقافياً بلسان متطور غير عربي. في الهند منذ ثلاثين سنة توجد سياسة تثقيفية مبنية على استيعاب اللسان الانجليزي ونشره، والكلام عن أحياء اللسان الهندوستاني يعدّ من قبيل الدعاية السياسية. أما في الوطن العربي فإننا لا نجد سوى الإهمال، وترك الأمور تتطور كما كتب لها، ليس هناك قرار تعريب جدي ولا قرار مضاد. ولما كان إهمال الأمور يعني في الحقيقة استمرار التخلف والتبعية والأمية، فكل قرار يستهدف التقدم والتطور يتساوى منطقياً مع قرار التعريب، فمضمون القرارين واحد هو سياسة قومية تخطط لمستقبل عربي. ولما كان مشكل التعريب قائماً حتى الآن فهذا دليل على أن القرار الوحدوي لم يتخذ فعلاً في الكيان العربي. ويكتسي الأمر صفة مشكلة حادة عندما تحدث ظروف تمنع من اتخاذ القرارات لتحقيق الإصلاحات اللازمة ومنها انعدام الحكم القومي، ولن يتم أي إصلاح في حال غياب سلطة لها نفوذ على المجموعة القومية.

أما السلطات الخاضعة لمنطق الإقليمية فإنها لن تجرؤ على تبني الإصلاح لأنها تعتمد الازدواجية سياسة، تحافظ على اللسان القديم لتكسب قدراً من الشرعية، وتفتح المجال لنشر لسان أجنبي لتحقيق قدر من التحديث، وتترك الحرية للهجات لتضمن قدراً من الاستقلال الداخلي.

ومن هنا لابد للعرب من أن يفكروا بكيفية حديثة مع أنفسهم وبلسانهم لامع غيرهم فقط وبلسان الغير⁽¹⁰⁾.

تلك هي مشكلة التعريب في التعليم العالي في الوطن العربي: عدم اتخاذ القرار الحاسم لاعتماد العربية وتبنيها في التدريس الجامعي، وبقاء الأمور معلقة واستمرار للتخلف والتبعية، والأمية، وعدم استنابات العلم عربياً، وتسبب لغوي قومي وشعور بالتصاغر والتكابر، التصاغر تجاه الثقافة الأجنبية، والتكابر تجاه الثقافة القومية وتراثها الحضاري.

ثالثاً: التعريب بين التأييد والمعارضة والتريث:

آ. المؤيدون:

يرى مؤيدو التعريب أن التدريس باللغة القومية يهدف إلى تحقيق ما يلي:

1. **تقوية تماسك الوحدة الوطنية وتنمية الشعور القومي وتقوية الروابط الثقافية بين أبناء الأمة:** ذلك أن الحديث عن اللغة والعمل من أجل بقائها كان ميدانا من الميادين التي صارع فيها العرب أعداءهم، فلقد كانت الهجمات الاستعمارية منذ بداياتها حريصة على أن تصيب هذا الوجود العربي في نقطة القلب منه: الدين واللغة. ولم تكن الحملات التبشيرية التي رافقت أو مهدت أو جاءت من بعد هذه الهجمات الاستعمارية إلا تمكينا لذلك على نحو من الأنحاء. ومن هنا كانت قضية اللغة والتعريب في كثير من أشكالها ومظاهرها ردّاً على الحملات التي استهدفت الوجود العربي لا في صورته المادية: الأرض، ولا في صورته الدولية الاستقلال فحسب بل في وجوده الذاتي بالدرجة الأولى، أعني في أخص خصائصه وفي أبرز عناصر الأصالة فيه. هل يمكننا أن ننسى حملة التتريك وإبعاد اللغة العربية عن أن تحتل مكانتها في الحياة؟

إن الأحداث التي أملت بالوطن العربي في مشرقه ومغربه بعد الحرب الأولى جعلت جناحي هذه الأمة في وضع مماثل: سلطان أجنبي قاهر لا يريد الأرض وحدها، ولا يريد المواد الأولية وحدها، ولكنه يريد أن يحول بين هذا الشعب في هذين الجناحين وبين وظيفته الحضارية. يريد أن يردّ هذه الأمة عن أن تعي ذاتها، وهو يتخذ إلى طمس هذه الذات وتذويبها كل الوسائل

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

منفردة ومجتمعة، الاستعمار الاستيطاني والاستعمار الفكري والاستعمار اللغوي والاستعمار الديني.... إلخ.

وفي الواقع وجدت البلاد العربية نفسها من شواطئ الدار البيضاء إلى شواطئ الخليج أنها هدف لقوى مفترسة، وأنها تعاني أوضاعاً متشابهة، وأن طريقها لتجاوز هذا الطغيان طريق واحد هو طريق الحفاظ على عناصر الأصالة الذاتية، وهي ذاتها عناصر الوحدة.

وكان من تقدير الله للشعب العربي في أعقاب الحرب العالمية الثانية وحولها وقبلها أنه تخلص في كثير من أقطاره من التبعية السياسية الصريحة بشكل أو بآخر، ولكنه ظلّ مستهدفاً للتبعية الثقافية، وظلّ الحكم الغربي في السطوة الفكرية يملأ قلوب المستعمرين الأوروبيين كما يملأ عقولهم ويوجههم في مجالات اللقاء كافة.

وظلّت اللغة العربية مادة تفجير وتفجر: الغرب المستعمر يريد تفجيرها بطرائق لا تحصى من مثل: إحياء اللغات الميتة، وتشجيع انتشار اللهجات المحلية، ورمي اللغة العربية بكل نقیصة واتهامها بكل صعوبة، وفرض اللغة الأجنبية ونشر المؤسسات التعليمية التبشيرية، ويؤيده في ذلك النقّدم الحضاري للدول الغربية وضعف الحكومات العربية واستخذاء بعض عناصرها. وكانت الأمة العربية الإسلامية تحاول أن ترد ذلك في هذه الميادين، وأن تحيل هذا التفجير الخارجي الذي يريد الإبادة إلى تفجر داخلي في ذات اللغة ينفي عنها ما علق بها من مظاهر الضعف، ويحاول أن يردها حية على الألسنة والأقلام، ويريد لها أن تكون كما كانت بالأمس لغة حضارة، لغة علم ولغة أدب على السواء، ويصدّ عنها كل ألوان النقص الذي رميت به والعيوب التي ألصقت بها، ويحرص على أن تكون عاملاً مزدوجاً، عامل تحرير فكري من نحو وعامل وحدة سياسية أيضاً من نحو آخر⁽¹¹⁾.

وها هو ذا التاريخ يعلمنا أنه ما وجدت أمة من الأمم إلا كانت لها لغتها الخاصة، وأن فقدانها لهذه اللغة يؤدي بها لا محالة إلى فقدان وعيها وإنيتها وذاتيتها لأن المحتل يحرص دائماً على فصل ضحاياها عن ماضيهم بقطع وسيلة الاتصال التي هي صدى أسلافهم والقوة الطبيعية الحية

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

لأمتهم، إذ إن اللغة المكتوبة هي الاسمنت الذي يضمن تماسك الوحدة الوطنية، وهي العروة الوثقى التي تربط بين الأحياء وتصل بالأموات ويكتب بها سجل الأمم⁽¹²⁾.

2. **الجمع بين الأصالة والمعاصرة:** ذلك أن العربية كانت طوال قرون عدة لغة العلم والحضارة في العالم المتحضر، لقد عرفها وكتب بها العرب والمسلمون وغير المسلمين حتى إن طائفة كبيرة من هؤلاء العلماء قد ثقفوها ووقفوا على أسرارها فأحبوها وهجروا لغاتهم فجعلوها لغتهم المفضلة وبها عرفوا لأنهم كتبوا بها⁽¹³⁾.

وإذا ألقينا نظرة على التراث العلمي لأمتنا العربية الإسلامية فإننا نلاحظ غناه وتنوعه في مختلف الميادين، فما هو ذا الكندي يعد أول من وضع معجماً للمصطلحات العلمية، فقد وضع رسالة في حدود الأشياء ورسومها اشتملت على ثمانية وتسعين مصطلحاً فلسفياً جميعها من أصل عربي ما عدا مصطلحين اثنين فقط هما "فلسفة والاسطقس".

ووضع العالم العربي الرازي كتابه "الحاوي"، ويقع في ثلاثين جزءاً جمعت المعارف الطبية التي توصل إليها العقل البشري منذ أيام أبقرط، وظل هذا الكتاب المرجع الطبي الأساسي في أوروبا مدة تزيد على أربعمئة عام، كما كتب الرازي في الكيمياء، وهو أحد الأوائل الذين جعلوا الكيمياء علماً يمارس على طرائق علمية وعملية وتجريبية.

وكتب "ابن سينا" في عدة علوم، ففي مجال الطب وضع قواعد علم الجراحة والتشريح، ومهد السبيل للاكتشافات الطبية العظيمة التي حققها علم الطب الحديث، ووضع كتاب "القانون" في الصيدلة أورد فيه ما يزيد على السبعمئة عقار.

وكان "البيروني" عالماً بالفلك وفيلسوفاً رياضياً وجغرافياً، وكتابه في الفلك موسوعة تضمنت القوانين الطبيعية، ووضع كتاب الجواهر الخاص بالأوزان النوعية للمعادن والأحجار الثمينة، وعالج في كتابه الصيدلة أنواع الأدوية.

ويعدّ "ابن البيطار" من أعظم العباقرة في علم النبات حيث شرح في كتابيه "الأدوية المفردة"

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

و"الأقرباذين" حوالي ألف وأربعمائة نبات طبي مع ذكر أسمائها وطرق استعمالها.

ووضع أبو القاسم الزهراوي كتاب "رسالة التصريف لمن عجز عن التأليف" ويعدّ كتاباً مدرسياً للجراحة يشتمل على أشكال وصور لآلات طبية ساعدت على وضع أسس علم الجراحة في أوروبا إذ كان مرجعاً لقرون عديدة.

ويعدّ جابر بن حيان من أوائل الأسماء التي مجدها الغرب، وترجم كتبه إلى اللاتينية وكتابه "التراكيب" من أوائل الكتب العربية التي ترجمت إلى اللاتينية، وظلت كتبه في الكيمياء المرجع الأساسي لأوروبا في القرون الوسطى، واستمر أثرها حتى القرن الثامن عشر.

كما يعدّ الحسن بن الهيثم من أعظم علماء الطبيعيات، ويأتي على رأس قائمة علماء البصريّات وقد ترجم كتابه "المناظير" خمس مرات إلى اللاتينية، ونقل كثير من علماء أوروبا فن البصريّات وعلم الضوء من مؤلفاته.

ووضع "الخوارزمي" كتابين هامين في الرياضيات حمل الأول منهما حساب الجبر والمقابلة لتصبح كلمة الجبر كلمة عالمية، والكتاب الثاني في علم المحاسبة شرح فيه استخدام نظام الأعداد والأرقام، كما شرح طرق الجمع والطرح والقسمة وحساب الكسور. وترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية، واستعاض الأوروبيون بالأرقام الرومانية المعقدة الأرقام العربية البسيطة. والصفريّ يعدّ من الاكتشافات الهامة التي أشار إليها الخوارزمي، وعن طريقه استطاعوا بناء الأرقام⁽¹⁴⁾.

تلك هي إشارات عابرة فقط تدل على مساهمات العلماء العرب والمسلمين في المجالات العلمية تأليفاً وتعريباً، ومازالت دور الكتب في العالم تزخر بالوثائق والمخطوطات العربية التي تكشف كل يوم عن خباياها وتضيف جديداً لإسهامات العرب والمسلمين في بناء الحضارة الإنسانية. وعندما يتعرف الدارس ما أسهمت به أمته في إغناء الحضارة الإنسانية وخاصة في الميادين العلمية يدفعه ذلك إلى وصل الحاضر بالماضي والاستمرارية في إعلاء صرح تلك الحضارة بحثاً وإنتاجاً وإبداعاً.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

وإذا كنا اليوم نروم استنبات العلم عربياً والتعبير عن العلم بالعربية فما ذلك إلا لاستمرار مسيرة أمتنا العربية وربط لماضيها المجيد بحاضرها الذي نوده مشرقاً وبناءً وفعلاً في مسيرة الحضارة البشرية.

3. **تعزيز وشائج الربط بين الجامعة والمجتمع:** إذ أن علينا أن نحكم الصلة بين ما نعلمه لأبنائنا وما نعددهم من أجله، وأن على القيادات الجامعية أن تجعل من الجامعات ومعاهد التعليم العالي العربي مصانع لتخريج الرجال الذين استنارت بصائرهم وتأصلت شخصياتهم، وتركزت دعائم انتمائهم إلى أمتهم، ولن يتحقق ذلك بإبعاد اللغة القومية، وإنه لتناقض عجيب أن نعلم طلابنا شرف لغتنا وكونها دعامة قوميتنا، ونتحدث لهم عن مزاياها وسعة تراثها ثم نباعد بينهم وبينها فنعزلها عنهم ونعزلهم عنها مثبّتين لهم عملياً أنها لغة قاصرة وعاجزة، ولا تصلح للتعليم عندما ندرس باللغات الأجنبية ولا ندرس بها.

4. **توحيد الثقافة والمجهود العلمي والفكري في الوطن العربي:** إذ إن عدداً من أعضاء الهيئة التدريسية تخرجوا في جامعات فرنسية أو ألمانية أو روسية أو غيرها، فهل يترك لكل طائفة لغة تختص بها فلا يكون بين علماء الأمة الواحدة جامعة تضم أفكارهم وتجمع إنتاجهم، إننا إن لم ندرس بالعربية نبدد جهود علمائنا فلا يفيد بعضهم من بعض، ولا يطلع بعضهم على ما يؤلف بعضهم الآخر إلا إذا كانت بينهم لغة مشتركة واحدة يصبون أفكارهم في قوالبها ويصوغون علومهم بها. ومن هنا كانت الدعوة إلى التدريس بالعربية دعوة إلى توحيد الثقافة وتركيز المجهود العلمي والفكري في الوطن العربي.

5. **مساعدة الدارسين على الفهم والاستيعاب:** ذلك أن التدريس باللغة العربية يسهل كثيراً التحصيل العلمي والاكتمال التربوي ما دام باللغة الأم، ويجعل من عملية التدريس عملية ممتعة للطلاب والمدرس فيشارك الطلاب أستاذهم بفهم المسموع وسرعة التدوين، مما يوفر الكثير من الوقت للطرفين، إضافة إلى أن الطالب لا يتهيب المادة كما هي عليه الحال باللغة الانجليزية، إذ إن من مقاييس التهييب للطالب قدرته الذهنية واستعداده النفسي في فهم المادة

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

في حدّ ذاتها. وقد أثبتت بعض الأبحاث أن اللغة العربية تساعد الدارس على الفهم والاستيعاب بصورة أفضل.

فثمة دراسة أجريت في صفاقس بالجمهورية التونسية شملت أساتذة التعليم الثانوي المختصين بالعلوم الفيزيائية والعلوم الطبيعية والرياضيات والمواد التقنية، كما شملت عينات من التلامذة في المدينة وفي الريف ومن الفتيات والفتيان، إضافة إلى شمولها المحيط الذي يتعامل معه في التعليم أي المؤسسات والإدارات بمختلف أنواعها. وتوصلت الدراسة إلى أن 95% من الأساتذة يميلون إلى تدريس العلوم بالعربية فوراً، أو بعد فترة تدريب لا تزيد عند أغلبهم على عامين، كما أوضحت أن التلاميذ الذين يتعلمون بالفرنسية من سن 12 و 19 سنة لا يحفظون مما تعلموه في نهاية كل سنة إلا بنسبة 22%. وأن 84% من هؤلاء يرغبون في تفسير ما تعلموه بالعربية لا بالفرنسية التي تعلموه بها. وعندما سئل الطلاب عن شرح بعض المفردات العلمية أو المصطلحات "وجه إليهم السؤال بالفرنسية"، أجابوا عنه بالعربية وقد أعطي لهم الخيار في الإجابة بإحدى اللغتين⁽¹⁵⁾.

وفي صفاقس نفسها تمّ تقويم خطة تعريب علم التشريح عبر سبر آراء طلبة السنة الأولى من كلية الطب بصفاقس، وقد طبقت التجربة بعد توزيع استبانة على الطلبة سئلوا فيها عن فهم المصطلحات ومجال فهمهم للمواد الأخرى والمستوى العلمي واللغوي. وتبين أن الطلبة أصبحوا يفهمون المفردات دون الاستعانة بقواميس أو مراجع، وأن مستوى تعليم علم التشريح تحسّن قياساً لما كان عليه المستوى بالفرنسية⁽¹⁶⁾.

وفي دروس الطب النفسي بالجمهورية التونسية يذكر الدكتور سليم عمار أن الطلبة كانوا يتجاوبون بصلّة تلقائية مع الأمثلة المحسوسة التي كانت تقدم لهم باللهجة التونسية المهيبة تارة وتارة أخرى بلغة عربية سهلة المنال، فكان الطلبة يفهمون دروس الطب النفسي بكلّ وضوح، بينما كانوا يجدون صعوبة في فهم المعاني والمصطلحات الفرنسية المعقدة التي كانت تقدم لهم في صلب المادة الدقيقة المتشعبة في نظرياتها وكلماتها ومعانيها. وقد أجمع المستمعون على أن

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

الدرس العربي كان سهل المنال بفضل التذكير بالمصطلحات الفرنسية المقابلة للمصطلحات العربية والتي كثيراً ما كانت واضحة المفاهيم بالرغم من أنها تقدم للطلبة لأول مرة.

وقد نسج على هذا المنوال بعض الأساتذة الذين ألقوا دروساً في جراحة الأعصاب وطب العيون باللغة العربية دون استخدام اللغة الفرنسية، وكان التقبل ايجابياً⁽¹⁷⁾.

وفي دراسة علمية أجريت في كلية العلوم بجامعة الكويت تبين أن استخدام اللغة الانجليزية وسيلة اتصال تعليمية يسبب مشكلة لدى عدد كبير من الطلبة إذ أشار حوالي 83% من عينة أعضاء هيئة التدريس العرب في كلية العلوم و84% من عينة طلبة كلية العلوم، و98% من عينة طلبة كلية التربية إلى أن الطلبة المستجدين يواجهون صعوبة في استيعاب المفاهيم التي تدرس لهم باللغة الانجليزية.

وقد دعم هذه الآراء ما ذكره أعضاء هيئة التدريس غير العرب من أن طلبة العلوم بصورة عامة يعانون من مشكلات لغوية لا تمكنهم من فهم المحاضرات التي تقدم لهم باللغة الانجليزية، إذ إن لديهم مشكلات في الكتابة والتفاعل الشفهي، ويفتقرون إلى المصطلحات العلمية والقدرة على تلخيص ما يدور في المحاضرة لأنهم يفكرون بالعربية⁽¹⁸⁾.

ومن هنا كانت التوصيات المنبثقة عن هذه الدراسات كافة تدعو إلى اعتماد اللغة العربية لغة تدريس في الجامعات. والدعوة إلى استخدام اللغة القومية في التدريس الجامعي ليست بدعا في العالم، ولا هي أمر عجيب بل العكس فيها هو الأمر العجيب، إذ ليست هناك دولة في العالم إلا اتخذت من لغتها القومية لغة للتعليم العالي في جامعاتها، بل حتى في جمهوريات الاتحاد السوفيتي سابقاً تدرس كل جمهورية بلغتها المحلية في جامعاتها حرصاً منها على أن يطلع كل مواطن مثقف على ميادين العلم والمعرفة باللغة التي يتقنها، وكان قادة الاتحاد السوفيتي سابقاً قادرين على فرض اللغة الروسية الواحدة في جميع الجمهوريات، ولكنهم أدركوا الألفة بين اللغة التي يتقنها الطالب والعلوم التي يجب عليه الإلمام بها، كما أدركوا الضرر الذي سيعود على العلم والثقافة لو أبعدوا اللغات المحلية عن التعليم العالي.

6. تحقيق ديمقراطية التعليم، إذ ما معنى ديمقراطية التعليم إذا لم يكن هذا التعليم باللغة التي يفهمها معظم أبناء الأمة، إن ديمقراطية التعليم ما لم يكن باللغة القومية شعار لا مضمون له وصورة لا واقع لها، وديمقراطية التعليم وكونه باللغة القومية طرفان متلازمان لابد أن يؤدي أحدهما بالضرورة إلى الآخر، وما إصرار بعض الجامعيين على استخدام لغة لا يتقنها غيرهم إلا تعبير عن شعور بالتمييز والطبقية، وترفع عن المجتمعات التي أنشئت مؤسساتهم لخدمتها.

7. استمرارية تعليم اللغات الأجنبية: إن الداعين إلى التدريس باللغة القومية يدعون في الوقت نفسه إلى الاستمرارية في تعليم اللغات الأجنبية، ذلك لأن إتقان لغة أجنبية واجب لا بد منه لمتابعة التقدم العلمي، ولكن شتان ما بين إتقان اللغة الأجنبية وبين استخدامها بديلاً عن اللغة القومية. إن في إتقان اللغة الأجنبية دعماً للثقافة ورمزاً لها في كل ميدان من ميادين العلم، وأما استخدامها بديلاً فعزل للغة القومية ووأد لها.

8. الإفادة من تجارب المجتمعات الأخرى: أدرك فلاسفة الغرب ومفكروه وساسته أهمية اللغة في البنيان القومي، فما هو ذا "هردر" الألماني يقول: "إن لغة الآباء والأجداد مخزن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين، وقلب الشعب ينبض في لغته، وروحه يكمن في لغة الآباء والأجداد"⁽¹⁹⁾.

وعندما سئل "بسمارك" عن أفضع الأحداث التي حدثت في القرن الثامن عشر أجاب: إن المستعمرات الألمانية في شمال أمريكا اتخذت اللغة الانجليزية لغة رسمية لها "وهو يعني أنه كان في شمال أمريكا جاليات ألمانية كبيرة، وعند حصول هذه المستعمرات على استقلالها اتخذت اللغة الانجليزية لغة رسمية لها، وكان يأمل أن تتخذ هذه المستعمرات اللغة الألمانية بدلاً من الانجليزية كي يضمن ولاءها لألمانيا، وأثبت التاريخ صدق نظرة بسمارك، ففي الحربين العالميتين الأولى والثانية كان ولاء الولايات المتحدة الأمريكية لانجلترا على الرغم من كل خلاف بين أمريكا وانجلترا. ومن مصادر هذا الولاء اللغة المشتركة التي تجمع بين الأمتين، إذ إن لوحدة اللغة أبلغ

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

الأثر في تقريب الاتجاه الثقافي⁽²⁰⁾.

واعتمدت الثورة الفرنسية اللغة الرسمية الفصيحة انطلاقاً من أنه لا حرية حقيقية من رواسب الإقطاع ولا كيان للشخصية الفرنسية إلا بتمثل اللغة القومية ومعرفتها، والقائد الفيتنامي "هوشي مينة" يرى أنه لا انتصار على العدو إلا بالعودة إلى اللغة والثقافة القومية⁽²¹⁾.

وها هي ذي إسرائيل تقيم كيانها على إحياء اللغة العبرية، إذ كانت لأغلبية المهاجرين اليهود إلى أرض فلسطين لغة في ألمانية والنمسا وروسيا وبولونيا وأوروبا الشرقية عامة، وكانت لهذه اللغة آدابها، ولكنهم تركوها وآدابها ليحيوا لغة أخرى ماتت عملياً منذ ألفي سنة ألا وهي العبرية، وشتان بين اللغتين العبرية والعربية في مسيرة الحضارة الإنسانية⁽²²⁾.

وها هي ذي فنلندة تدرس الطب باللغة الفنلندية على حين ندرسه في أغلب جامعاتنا بالانجليزية وأين الفنلندية من العربية. وهل لها الرصيد الثقافي الحضاري العربي العريق؟ وهل لها ما للعربية من تراث طبي مجيد؟ نحن الذين علموا الطليان الطب في عصر النهضة وها هم أولاء يدرسون الطب بلغتهم الطليانية، وأسأتذتهم العرب يدرسونه بلغة أجنبية⁽²³⁾.

ب. المعارضون:

يتجه المعارضون على التعريب إلى تقديم الحجج التالية:

1. إن لغة العلم في عصرنا الحالي إنما هي اللغة الانجليزية، و(98%) من المراجع والمصادر العلمية هي باللغة الانجليزية، وإذا لم نعلم الطلبة هذه اللغة فكأننا نمنعهم من الاطلاع على هذه المصادر والمراجع ونغلق عليهم نافذة العلم، ونحول دون أن ينمو تحصيلهم لدرجات عليا في الجامعات الخارجية لو أرادوا ذلك، فضلاً عن ان استعمال اللغة الانجليزية في تدريس العلوم يعدّ أسرع وسيلة للسيطرة على هذه اللغة⁽²⁴⁾.

2. ضالة توافر الكتب والمراجع باللغة العربية وركاكة الأسلوب وسوء الإخراج.

3. قلة الأساتذة المعدين للتدريس بالعربية.

4. غرابة بعض المصطلحات العربية التي أصدرتها بعض الجامعات اللغوية، ووفرتها واستعمال أكثر من مصطلح تبعاً لما يصدر عن كل مجمع لغوي أو جامعة أو مركز بحث، وصعوبة فهم بعض المصطلحات العربية وشيوع المصطلحات الأجنبية التي أصبح بعضها متداولاً حتى بين عامة الناس⁽²⁵⁾.

ويرى آخرون إن في كل علم عدداً كبيراً من المصطلحات، وإن أكثر هذه المصطلحات لم يترجم إلى العربية حتى الآن وقد لا يكون له مقابل في اللغة العربية.

5. النظر إلى التعريب على أنه شعار بلا مضمون.

6. وجود مشكلة الرموز العلمية والأحرف والأرقام.

7. وجود مشكلة النشر والتوزيع.

وفي دراسة ميدانية قام بها الدكتور سيد حامد حريز في جامعة الخرطوم عام 1983 وجد أن نسبة عالية من أساتذة جامعة الخرطوم لا ترى ضرورة للتعريب، وأن اللغة العربية الفصيحة بنحوها وصرفها قد اكتسبت صورة منفرة في أذهان الصفوة من المتعلمين السودانيين لاسيما الذين نالوا تعليماً أوروبياً، وأن عدداً كبيراً من أساتذة جامعة الخرطوم تجيد اللغة الانجليزية، وتعترف بعدم إجادتها اللغة العربية، وأنهم يذكرون بشيء من الحسرة أن تعريب المناهج في المراحل الثانوية صحبه انخفاض في مستوى اللغة الانجليزية، وأن الكتب والمراجع باللغة العربية غير متوافرة⁽²⁶⁾.

ج. الرد على المعارضين:

الحجة الأولى: إن التعليم بالعربية يحرم الطالب المتخرج من متابعة الركب العلمي المتطور بسرعة.

الرد: إن علاج ذلك سهل وميسور ويتجلى في تقوية اللغة الأجنبية بحيث يتقنها الطالب أو يلم بها إماماً كافياً يسمح له بالمتابعة فيما بعد، والدليل إن طلاب كلية الطب بجامعة دمشق الذين يدرسون الطب بالعربية عندما يتقدمون إلى الفحص الأمريكي اللغوي الطبي، تفضل نتائج امتحاناتهم في مرات كثيرة نتائج زملائهم الذين درسوا الطب باللغة الإنجليزية، ولم يحل تعليمهم الطب بلغتهم العربية من اجتياز امتحانات اللغة الطبية الإنجليزية بنجاح.

الحجة الثانية: إن في كل علم عدداً كبيراً من المصطلحات، وإن أكثر هذه المصطلحات لم يترجم إلى العربية حتى الآن، وقد لا يكون له مقابل في لغتنا بسبب عجز اللغة العربية

الرد: إن استخدام اللغة العربية في التعليم أمر، واستعمال المصطلحات أمر آخر، إننا ندعو أن نكتب عن العلم بالعربية ونلقي دروسنا بالعربية، وتبقى المصطلحات العلمية بأسمائها الأجنبية إلى أن تعرب أو تحلّ مشكلتها، ليكتب المؤلفون المحاضرون الفيتامين والهرمون والكولسترول، وكل مصطلحات العلوم غير المعربة بأسمائها الأجنبية، ولكن ليتكلموا عنها وليتحدثوا باللغة العربية، إننا نطالب باستعمال اللغة القومية لأن اللغة كيان فكري ونفسي رائع، وأما المصطلحات فألفاظ أو قوالب لفظية تدل على معان معينة⁽²⁷⁾.

ثم كيف نوفق بين ادعاء عجز اللغة العربية عن استيعاب المصطلحات الطبية كما يدّعي بعضهم وبين واقع الأمر وحقيقته وهو شمول اللغة العربية لكل مصطلحات الطب وغيره، كما ينطق به الواقع السوري في كلية طب دمشق، والتي كانت من أوائل الجامعات التي بدأت في التعريب، وكان لها الفضل في نشر التعريب الطبي وغيره حيث سادت لغة الضاد في مدرجات هذه الجامعة تدريجاً وامتحاناً؟⁽²⁸⁾.

الحجة الثالثة: قلّة المراجع والكتب

الرد: إن هناك عدداً من الجامعات في الوطن العربي تدرس الطب والهندسة والعلوم وغيرها باللغة العربية، وفي هذه الجامعات كتب ومراجع وأمّهات في مجالات الاختصاص، كما أن هناك

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

العديد من المعاجم والمصطلحات التي يصدرها مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، كما أن المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر التابع للمنظمة أيضاً يصدر كتباً مترجمة في المجالات العلمية.

الحجة الرابعة: التعريب شعار بلا مضمون

الردّ: ليس التعريب شعاراً بلا مضمون، ولكنه ضرورة قومية وحضارية لا بد منها وهو موقف نفسي أولاً يدعو إلى التميّز الإنساني وتقوية الانتماء إلى هذه الأمة، وها هو ذا المسؤول عن التعليم الطبي في منظمة الصحة العالمية يستنكر ظاهرة في التعليم الجامعي في البلاد العربية ولا يستطيع أن يستسيغ هذه الظاهرة، وهي أنه ليس فيها إلا جامعة واحدة تدرس الطب بالعربية، وهو يرى أن التعليم بغير العربية ظاهرة تخلف ليس لها أي مبرر، وتتنافى مع مقررات منظمة الصحة العالمية الداعية إلى التعليم الطبي باللغة القومية⁽²⁹⁾.

الحجة الخامسة: اللغة الإنجليزية هي لغة العلم ولا بدّ من تعليم الطب بها

الردّ: ليست اللغة الإنجليزية وحدها لغة العلم، فهناك الفرنسية والروسية والألمانية واليابانية والاسبانية والصينية... والبلدان الأوروبية وغيرها تعلم طلبتها بلغاتها، وليس هناك شكوى من أن هؤلاء الطلاب ممنوعون من الاطلاع على المراجع، وأن نافذة العلم قد أغلقت دونهم، ويؤيد ذلك الأبحاث والمخترعات والمكتشفات التي ينجزها أبناء هذه الشعوب.

د. الداعون إلى التريث:

ثمة من يدعو إلى عدم الإسراع في التعريب، وأن التعريب يستلزم مدى زمنياً ولا يمكن أن يتم إلا بعد توفير مستلزماته، ونظراً لأن هذه المستلزمات غير متوافرة بصورة وافية كان التريث في التعريب أمراً تقتضيه الظروف الراهنة، إذ إن المراجع بين أيدي الطلبة غير متوافرة، كما أن الأساتذة المعدين إعداداً جيّداً للتدريس بالعربية غير متوافرين على النحو المنشود، إضافة إلى أن تأهيلهم إنما هو بالانجليزية في الأعم والأغلب، يضاف إلى ذلك أن هناك معوقات فنية ومادية

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

تستلزم التريث، ومن هذه المعوقات⁽³⁰⁾:

- . قلة الإمكانيات الفنية وضعفها "رسم، طباعة، تصوير..." .
- . قلة القواميس والمعاجم المتخصصة في مختلف المجالات.
- . عدم وجود مصطلحات علمية متفق عليها.
- . ضعف بعض أعضاء الهيئة التدريسية باللغة العربية مما يعوقهم في عملية الترجمة والتعريب.
- . إقبال المدرسين بأعباء تدريسية وإدارية كثيرة تستنفد طاقتهم، وتحدّ من تفرغهم للتعريب.
- . عدم توفر المكان والجو الملائم داخل الجامعة للقيام بعملية التعريب.
- . العجز في الأطر التدريسية وارتفاع نسبة الطلبة إلى المدرسين.
- . عدم اطلاع التدريسيين على ما يجري في الأقطار العربية في مجال التعريب.
- . فقدان خطة عربية قومية موحدة للتعريب والترجمة.
- . ضعف الإقبال على العمل الجماعي المنظم في عملية التعريب.
- . عقدة الخوف من المجهول حيث يظن الطائون أن التعليم بالعربية سيؤدي إلى مستوى التعليم والبحث.
- لهذه الأسباب مجتمعة يرى نفر من الأساتذة أن التريث في التعريب أمر تحكمه الظروف الموضوعية، وأن الإقدام عليه دون تهيئة مستلزماته قد يكون له آثار سلبية وانعكاسات خطيرة على عملية التعريب نفسها.

رابعاً: مستلزمات التعريب:

تجدر الإشارة إلى أن الأهداف المرسومة للتعريب يستلزم تحقيقها أمور متعددة منها:

1. القرار السياسي الملزم لاعتماد التعريب منهجاً في الحياة، وأن التسويق الذي سبقت الإشارة إليه لا يمكن أن يحسمه إلا قرار سياسي تمده جذوة من الحماسة والإيمان، وعندها فقط تذلل الصعوبات، ولنتخذ من تجارب الآخرين معلماً نستهدي به في مسيرتنا، فها هي ذي جامعة الفيتناميين تستعمل اللغة الفيتنامية في تدريس العلوم كافة، وعندما أصدر "هوشي مينه" أمره بالفتنة الشاملة على الرغم من أن الفرنسية للمجتمع الفيتنامي دامت أكثر من ثمانين سنة، طلب أساتذة كلية الطب في هانوي مقابلته ليخبروه بأن فتنة الدراسات الطبية عملية مستحيلة بسبب جهل أساتذة كلية الطب وطلبتها باللغة الفيتنامية، وطلبوا إليه العدول عن قراره أو إهمال تطبيق الفتنة على كلية الطب، واستمع القائد الفيتنامي لهم ساعات، ثم حسم الموقف في نهاية المقابلة قائلاً لهم: يسمح لكم بالتدريس باللغة الفرنسية بصورة استثنائية هذه السنة فقط، مع ضرورة تعلمكم وطلبكم اللغة الفيتنامية الوطنية خلال أشهر الدراسة التسعة، على أن تجري الامتحانات وفي سائر المستويات في نهاية السنة باللغة الفيتنامية، ثم تستأنف الدراسة في السنة المقبلة باللغة الفيتنامية⁽³¹⁾.
2. إلى جانب القرار السياسي الملزم بالتعريب لا بد من توافر فئة من المدرسين تؤمن بالتعريب، وتدعو إليه، وتدافع عنه، وترتب تنفيذه، ذلك لأن المدرس هو أساس عملية التعريب، ولا بد من توافر القناعة لديه بالتعريب، وأن يكون مستعداً نفسياً له، وذا عزيمة لتذليل العقبات.
3. الإفادة من تجارب التعريب في بعض جامعات الوطن العربي "في سورية، الأردن مصر".
4. انتداب أساتذة من الجامعات التي تنفذ التعريب وذلك للتدريس بالعربية وإلقاء محاضرات بها لفترات كافية، على أن يفيد الأساتذة المحليون من تجاربهم.
5. تشجيع الأساتذة على مطالعة كتب التراث ذات العلاقة بتخصصاتهم لمدهم بمصطلحات

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

- علمية ومفردات تعينهم في إغناء لغتهم في مجالات تخصصهم⁽³²⁾.
6. تشجيع الأساتذة على الكتابة وإلقاء الدروس والمحاضرات والمشاركة في الندوات باللغة العربية الفصيحة.
7. تنظيم برنامج تبادل الزيارات بين مدرسي المادة الواحدة في الجامعات العربية.
8. تنظيم دورات تدريبية مستمرة لتأهيل أعضاء هيئة التدريس في أثناء خدمتهم.
9. الطلب إلى الموفدين العائدين ترجمة رسائلهم إلى العربية واعتبار ذلك شرطاً لتعيينهم في عضوية الهيئة التدريسية كما هي عليه الحال في جامعات دمشق.
10. العمل على تخفيف الأعباء التدريسية والإدارية عن أعضاء الهيئة التدريسية وتوجيه جزء من نشاطهم إلى التعريب الذي سيؤدي بدوره إلى رفع مستواهم العلمي بصورة غير مباشرة.
11. عدم الاقتصار في عملية التعريب على الكتب الدراسية المقررة في الجامعات على أنها أمهات الكتب، بل أن تشمل أيضاً أمهات المجالات العلمية العالمية ليكون الطالب على اتصال دائم بتقدم العلوم وتطورها على النحو الذي يفعله الإنجليز والألمان والفرنسيون والروس ... الخ، وإعطاء مستخلصات لآخر ما صدر عن الأمم الأخرى من بحوث.
12. الاستمرار في تحقيق التراث العلمي العربي وكشف النقاب عن المخطوطات العلمية العربية إن في داخل الوطن العربي أو في خارجه كالمتحف البريطاني بلندن والمكتبة الأهلية بباريس والاسيكوريال في إسبانية... إلخ.
13. تشجيع العناية بالترجمة الفورية التي تحتاج إلى تدريب ومران وسرعة خاطر والاطلاع على مادة الاختصاص مع رصيد كبير في اللغتين العربية والأجنبية⁽³³⁾.
14. دعم المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر وتخصيص الإمكانيات المادية الملائمة لمشروعاته وتخصيص جوائز للترجمة.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

15. تشجيع كتابة البحوث بالعربية.
16. إصدار مجلات علمية متخصصة على مستوى عالمي تنشر بالعربية.
17. إصدار كتب علمية مبسطة للمستويات المختلفة بالعربية.
18. إصدار مجلات علمية مبسطة للمستويات المختلفة بالعربية.
19. الاطلاع على تجارب نقل العلوم إلى اللغات القومية في مجتمعات لا تملك لغة مرنة وواسعة كالعربية واليابانية والكورية.
20. الاهتمام بالدراسات العليا في الوطن العربي وتطويرها.
21. العناية باللغة العربية في مراحل التعليم العام قبل الجامعي واستعمال اللغة العربية السليمة في مرافق المجتمع ووسائل الإعلام كافة.
22. الاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية ينبغي له أن يتم بصورة متوازنة مع تنفيذ التعريب.
23. إنشاء وحدة معلومات تختص بالدراسات العليا والبحث العلمي في الوطن العربي، تتصل بشبكة الوحدات الفرعية المماثلة في الجامعات ومراكز البحوث التربوية.
24. توحيد المصطلحات في الجامعة الواحدة وبين الجامعات ومراكز البحث في الوطن العربي.
25. توفير الاعتمادات المالية لتأمين المراجع والمعاجم غير المتوفرة باللغة العربية.
26. وجوب التكامل بين سياسات التعريب على نطاق الوطن العربي حرصاً على الجهود المبذولة توحيداً للرؤية الفكرية.

خامساً: الخلاصة:

من يلق نظرة على واقع خريطة التعريب في الوطن العربي يجد أن ثمة جهوداً بذلت، بعضها فردي وبعضها جماعي، بعضها قامت به مؤسسات خاصة، وبعضها الآخر قامت به مؤسسات قومية، منها ما قامت به مجامع لغوية، ومنها ما قامت به الجامعات، ومن هذه الجهود ما تم في الوطن العربي، وجهود قامت بها هيئات أجنبية.

إن تنوع هذه الجهود يرسم أمام الإنسان بصورة عفوية خريطة زاخرة الخطوط، ولكنها خطوط متداخلة ومتشابكة تمثل تكامل الجهود وتقاطعها، تواصلها وانقطاعها، اقليميتها وقوميتها، مشكلاتها الجزئية ومشكلاتها الكلية، اتساعها وضيقها، حذرنا واندفاعها حتى لیتعذر أن تهتدي إلى الوحدة بينها⁽³⁴⁾.

تلك هي الصورة التي رسمها أستاذنا المرحوم الدكتور شكري فيصل لعملية التعريب في الثمانينيات وما تزال هي هي، ولنستمع إليه يقول: "كنا نتحدث عن التعريب، عن إقراره أو إنكاره، عن قبوله أو رفضه، ولكن الجهد الأقل كان منصباً على التعريب ذاته، وكنا نتحدث عن قدرة العربية وعبقريتها دون أن نستثمر على مقياس واسع هذه القدرة وهذه العبقرية، وأن الذي نلاحظه في الحياة السياسية من التنوع الذي يقترب من التخالف والتكثّر الذي يقترب من التكرار هو الذي نلاحظه في هذا اللون من العمل الثقافي العربي.

لقد كانت المؤتمرات والندوات في كل قطر تبدأ عملها من الصفر، ولكنها غالباً لا تتابع بعد ذلك من حيث انتهى المؤتمر السابق.

وكان من النتائج المنطقية لهذا التنوع والتكثّر أن تبدو الجهود مشتتة، وأن تكون نتائجها من الضالة بحيث لا يمكن أن تكون متكافئة أو موازية لما أعد لها وبذل من أجلها، وقاد هذا التشتت إلى نوع من الجهالة حتى أضحي طبيعياً أن يجهل بلد ما كان في بلد آخر، وألا تعرف جامعة ما يكون قد نفذ في جامعة أخرى.

إننا في حاجة إلى أمرين

أحدهما منهجية واضحة في العمل تجمع كل ما كان أولاً وتقيد منه وتضعه في مكانه من البناء الداخلي ليكون مشاركة في هذا البناء.

وثانيهما برنامج زمني يراعى التزامه التقيد به، حتى لا تبقى حكاية تعريب التعليم الجامعي حكاية طويلة من غير حدود.

وها هي ذي تجربة الجامعات السورية تبقى الردّ العلمي الموضوعي على كل حملات التشكيك، إنها تجربة جديرة بكل تدبر، جديرة بدراسة إيجابيتها، وتعرف سلبياتها تعزيزاً للإيجابيات وتلافياً للسلبيات في انطلاقتنا الجديدة⁽³⁵⁾.

وها هي ذي الأمم صغيرها وكبيرها من حولنا في العالم تحافظ على هويتها القومية، إذ تحت عنوان "إندونيسيا حريصة على لغتها" نقلت الأنباء أن الرئيس الإندونيسي "سوهارتو" ناشد شعبه يوم الخميس في الثالث عشر من جمادى الأولى عام 1414 هـ الموافق 28 أكتوبر 1993م بعدم الخلط بين اللغة الأمّ واللغات الأجنبية الأخرى في إطار التخاطب والتواصل اللغوي اليومي، ونقلت رويتر عن سوهارتو قوله في خطاب له بمناسبة يوم الشبيبة الأندونيسية أن الكثير من العبارات والكلمات الأجنبية أصبح يشكل تهديداً للغة الباهاما وهي اللغة الأصلية والرسمية للبلاد مشيراً إلى أن ذلك يشكل تهديداً للهوية الوطنية للشعب الأندونيسي، وأضاف أن التقدم في العلوم والتقانة "التكنولوجيا" يتطلب من الأندونيسيين إتقان لغات أجنبية ولكن ذلك يجب ألا يتم على حساب اللغة الأندونيسية الأمّ.

وحري بنا أن نعرف قدر أمتنا ومكانتها في مسيرة الحضارة الإنسانية، فها هي ذي "زيغريد هونكة" تقول في كتابها النفيس "شمس الله تسطع على الغرب"، "دب في الطب الغربي فجأة في القرن السادس عشر شعور غريب بالخل من تقليده للطب العربي، وبقي قروناً طويلة من الزمن نسخة منسوخة عنه، وكانت معظم المخطوطات الأوروبية الطبية في أول عصر الترجمة وحتى

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

القرن السابع عشر تقليداً للعرب ونقلاً منهم، وقبل 600 عام كان لكلية الطب الباريسية أصغر مكتبة في العالم لا تحتوي إلا على مؤلف واحد، وهذا المؤلف كان لعربي هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي⁽³⁶⁾.

ولنستمع إلى قول شاعر ايطاليا الكبير "بيترارك" في القرن الرابع عشر الميلادي يندد فيها ببني قومية، ويستنهض همهم ويبث في أنفسهم العزيمة والثقة قائلاً: "ماذا؟ لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بعد ديموستن، واستطاع فيرجيل أن يكون شاعراً بعد هوميروس، وبعد العرب لا يسمح لأحد بالكتابة، لقد جارينا اليونان غالباً وتجاوزناهم أحياناً، وبذلك جارينا وتجاوزنا غالبية الأمم، وتقولون: إننا لا نستطيع الوصول إلى شأو العرب، يا للجنون ويا للخُبال، بل يا لعبقرية ايطاليا الغافية أو المنطفئة!"⁽³⁷⁾.

ومن هنا كان علينا أن نتخذ من ماضي امتنا المجيد عامل حفز إلى الأمام، إذ إن التريث في حسم موضوع كياني لأمتنا يتعلق بهويتها وانتمائها وحضارتها أمر يستلزم استنفار الجهود والإيمان والإقدام، إذ لا مسوّغ للتريث، ورحم الله محمد عبد الكريم الخطابي الذي قال له بعض رفاقه عندما أعلن ثورته: "فلننتظر حتى تكون لنا أسلحة، فأجابهم: تحوّلوا إلى مجاهدين تأتكم الأسلحة. السلاح الأول هو أن تؤمنوا بضرورة القيام بالواجب".

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

هوامش البحث

1. معجم لسان العرب لابن منظور، الجزء الرابع، دار المعارف، ص 2865.
2. الدكتور محي الدين صابر، قضايا الثقافة العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، تونس 1982، ص 87.
3. المرجع السابق.
4. المرجع السابق، ص 88.
5. الدكتور محي الدين صابر، اللغة العربية مستودع الفكر العربي، منشور في تعريب العلوم بين النظرية والتجربة الميدانية، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس 1987 ، ص 11.
6. الدكتور كمال يوسف الحاج، في فلسفة اللغة، دار النهار، بيروت، 1967، ص 311.
7. المرجع السابق، ص 6.
8. الدكتور محي الدين صابر، دور التعليم العالي في تنمية الذاتية الثقافية، المجلة العربية للتربية، المجلد الثاني، العدد الثاني سبتمبر 1982، ص 52.
9. عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثانية 1988، ص 214.
10. المرجع السابق، ص 28.
11. الدكتور شكري فيصل، المؤتمرات والندوات التي عقدتها المنظمات والهيئات العربية حول تعريب التعليم الجامعي في مجالات المصطلح العلمي والترجمة والتأليف: "عرض ودراسة"، 1982.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

12. مولود قاسم نايت بلقاسم، انية وأصاله، مطبة البعث بالجزائر، وزارة التعليم الأهلي والشؤون الدينية، 1975، ص.68
13. الدكتور إبراهيم السامرائي، في التعريب بين ماضيه وحاضره، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 29 عام 1978، ص.94
14. قاسم عثمان نور، التعريب في الوطن العربي، جامعة الخرطوم، 1988، ص 13 و 14
15. أحمد الزغل، تعريب العلوم بين النظرية والتجربة الميدانية التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، تونس 1987، ص.06
16. الدكتور أحمد دياب، تعميم خطة تعريب علم التشريح عبر سبر آراء طلبة السنة الأولى من كلية الطب بصفاقس، تجربة ميدانية، 1988
17. الدكتور سليم عمار، تعريب الطب النفسي، العلوم بين النظرية والتجربة الميدانية التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، 1987، ص.44
18. الدكتورة نجاه عبد العزيز المطوع والدكتور مصباح الحاج عيسى، أثر استخدام اللغة الانجليزية وسيلة اتصال تعليمية على التعليم الاكاديمي لكلية العلوم بجامعة الكويت، مجلة العلوم الاجتماعية بجامعة الكويت، المجلد الرابع عشر، العدد الرابع، 1986، ص.155
19. أبو خلدون ساطع الحصري، ماهي القومية؟، بيروت، دار العلم للملايين، ط2، 1963، ص.4
20. الدكتورة محمود أحمد السيد، شؤون لغوية، دار الفكر بدمشق، ودار الفكر المعاصر لبنان، 1989، الطبعة الأولى ص.9
21. مولود قاسم نايت بلقاسم، انية وأصاله، مرجع سابق، ص 76.
22. المرجع السابق، ص.74

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

23. الدكتور صفاء خلوصي، تعريب الجامعات، إحياء لكيان أكاديمي عربي أصيل، مطبعة جامعة دمشق، 1982، ص.4
24. الدكتور عبد المجيد نصير، تعريب التعليم الجامعي "العلوم الطبيعية" أفكار ومقترحات، جامعة اليرموك، مطبعة جامعة دمشق 1982، ص.4
25. المرجع السابق، ص.5
26. الدكتور سيد حامد حريز، تعريب التعليم الجامعي في السودان، المجلة العربية للدراسات اللغوية، العدد الأول المجلد الثاني 1983، ص.37
27. الدكتور مدني الخيمي، التعليم العالي بالعربية في لبنان، مؤتمر التعريب بدمشق 1982، ص.4
28. الدكتور أحمد محمد الحصري، مسؤولية عضو هيئة التدريس والناشر عن جمود التعريب في الوطن العربي، مطبعة جامعة دمشق، 1982 ص 10.
29. الدكتور مدني الخيمي، التعليم العالي بالعربية في لبنان، مرجع سابق، ص.5
30. الدكتور حسين محمد رزق والدكتور حاتم عبيد جعفر، معوقات تعريب التعليم العالي من وجهة نظر تدريس الجامعة التكنولوجية في العراق، مؤتمر التعريب في دمشق، عام 1982.
31. عثمان السعدي، العبرنة الشاملة والتحكم بالتكنولوجيا المعاصرة في الكيان الاسرائيلي، جامعة الكويت، كلية التربية قسم أصول التربية، قسم أصول التربية، ص.6
32. الدكتور سلطان الشاوي، تعريب التعليم العالي وسياسة الالتحاق به، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1984 ، ص.97
33. الدكتور صفاء خلوصي، تعريب الجامعات احياء لكيان أكاديمي عربي أصيل، مرجع سابق، ص.5

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

34. الدكتور شكري فيصل، المؤتمرات والندوات التي عقدتها المنظمات والهيئات العربية حول تعريب التعليم الجامعي في مجالات المصطلح العلمي والترجمة والتأليف، مرجع سابق، ص.50

35. المرجع السابق.

36. نقلا عن الدكتور محمود أحمد السيد، شؤون لغوية، مرجع سابق ص 47.

37. المرجع السابق، ص46.

التحريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

وجهة نظر حول السياسة الثقافية وفعل التعريب

للأستاذ انطون مقدسي

الترجمة ظاهرة حضارية . ثقافية لا نستطيع أن نفهم أو نحدد دورها . ما هي عليه وما يجب أن تكون عليه . إلا في إطار فعاليتنا الثقافية التي هي وجه من أوجهها، وأيضاً في إطار علاقتنا العامة بالأعم، المتقدمة منها على الخصوص.

كما أننا لا نستطيع أن ننبين صعوباتها وإشكالاتها بوصفها تقنية إلا بتحليل دقيق لبنية لغتنا في المرحلة الراهنة التي هي حلقة من حلقات تطور ما يزال مستمراً منذ خمسة عشر قرناً ونيف. والترجمة طريقنا اليوم إلى تحديث اللغة والعقل العربيين، لا وحدها طبعاً، فالاتصال المباشر. من وسائله المعروفة الدراسة في البلدان المصنعة أو أقله تعلم إحدى لغاتها وأيضاً وبالدرجة الأولى التمرس بالتقنية وبالعلوم التي استدعتها . أجدى منها ومفعولها أسرع. إلا أنه لا ينوب منابها. إذ إن الترجمة هي، إذا أجدها، قراءتك الأخرى من موقعك، في حين أن الاتصال المباشر يضعك في موقع الآخر ويجعلك ترى بعينه وقد تنقص حساسيته. فكل منهما محاذيره، وهما بالنتيجة متكاملان. إلا أن كليهما طريق إلى شيء آخر هو هدفها، اقصد التأليف الذي يضعك من الآخر في موقف الند للند.

بالترجمة يتدرب الإنسان على التقرب، ولغته على الانتقال إلى عالم غير عالمها الأليف. وهي لهذا تمرين قاس، شاق، لا يعطي أكله إلا على المدى البعيد. إذ إن الآخر لا يُدعن ببسر لك، ولغتك بالمقابل التي هي شخصيتك الثقافية تقاوم أحياناً بضراوة اقتحامه لها.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

وهي، إلى ذلك، تمرين خطر ومن الواضح أن البلد الذي تقلصت فيه قدرة الفرد على التأليف، فاعتمد إلى حد كبير عليها، والبلد الذي لا تكون فيه الترجمة حافزاً على التأليف، يفقد مع الزمن إحالته وقد تصاب شخصيته الحضارية بالهجنة. وهذا هو الداء الذي تتعرض له، اليوم، بلدان العالم الثالث، فقد تخلفت لأنها انعزلت قروناً عن حركة الثقافة العالمية، فهي في موقف التلقي، الترجمة قدرها. وقد تستسلم له، وطريق الذهاب أسهل بكثير من طريق الإياب. إلا أن التأليف دون الترجمة اجترار للماضي.

وبالمقابل فإن الترجمة لا تستقيم إلا بالتأليف الذي يعيد إلى الكلمة ضلالها وإلى العبارة قيمتها الإيحائية.

وثمة خطر آخر تتعرض له الثقافة العربية هو التقدم المتسارع للتأليف الأدبي في حين أن التأليف الفكري حتى اليوم محاكاة للنموذج الغربي أو اقتباس عنه وأحياناً كثيرة تشويه له. مما استدعى كلمة بديع الكسم المأثورة: تأليفنا ترجمة وترجمتنا تأليف.

والأدب دون الفكر هش القوام، قصير النظر. والفكر دون الأدب هيك عظمي فاقد الحياة والروح.

والأخطر شأناً هو أن الحضارة الحديثة مفترسة. فلم تعلن الحوار المعمم بين الشعوب والأمم إلا لشعورها الحاد أنها كذلك، أو أنها حضارة الصراع الأعنف بين الثقافات، وقد انتقل معها هذا الصراع من مجاله التقليدي الذي كان الفلسفة والشعر حيث قد يصبح تنافساً على الأفضل إلى مجالات أخرى تلتهم الآخر وترديه، في طليعتها الإعلاميات والإعلام، العلوم والتقنيات المتطورة وما يلزم عنها ولها من فنون كالسينما والفيديو أو الاستعراضات الكبرى الراقصة، بموسيقاها ذات الإيقاع العنيف تستثير الجسد وتستأثر به، وأيضاً المدن العملاقة وناطحات السحاب، إلخ. وكلها تتملك الإنسان فرداً وجماعة، روحاً وجسداً تلاشيه في مغفل هو بيد سيد الآلة.

فالت ترجمة على نطاق واسع، كما هي عليه الحال اليوم في العالم كله، ليست عملية بريئة كما

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

قد يتصورها البعض بكثير من السذاجة: إنها حوار وصراع، إن لم تكن من مقياسه استخدمها الآخر للسيطرة عليه.

في أواسط الخمسينيات وضع الأستاذ اتيمبل، رئيس قسم الأدب المقارن في السوربون، كتيباً، عنوانه يفصح عن مضمونه، هل تتكلم الفرنسية . الانكليزية؟ وما الاستفهام الاستكاري هنا إلا تعبير عن موقف الغرب، لا من المفردات والتعابير الانكليزية التي غزت لغاتها مع ترجمة العلوم الإنسانية وحسب وكانت . وما تزال . الأكثر تقدماً في الولايات المتحدة الأمريكية، بل أيضاً من الإطار الثقافي الحضاري والاجتماعي . السياسي الذي كانت الترجمة وجهاً من أوجهه والذي فرض معه نظاماً كاملاً من القيم والسلوك، من الحساسية والمعقولية... وهو نظام استدعته وفرضته على العالم التكنولوجيا الأكثر تطوراً.

فما بالك ببلدان العالم الثالث التي أفقدتها قرون من العزلة الثقافية مناعتها وتفرض عليها اليوم الحضارة التكنولوجية المبرمجة نظام التلقي والاستهلاك؟

وبالمقابل فإن التوقع اختناق. إذ الإنسان ابن مرحلته، إذا خرج منها أخرجه من التاريخ. فالخيار ليس بين حضارة الماضي (أي كانت) والحضارة الحديثة، أنت في هذه شئت أم أبيت، أنت في الحضارة الأكثر جبروتا وكلية بين حضارات التاريخ، اقصد الآلة زائد البرمجة = (تكنولوجيا) وهي تقنعك في مواجهة حدين لا ثالث يتوسط بينهما، وعليك أن تختار أحدهما:

إما أن تبذع الآلة أو تبذعك، وإما أن تسود في عالم الحضارة الحديثة بقوتك الخلاقة، وعندها تجد الطريق إلى استعادة شخصيتك في صميم هذه الحضارة، وأما أن تسودك وتلحقك إلى ما شاء الله بسيدها الذي يخطط ويبدع.

أن هنا خيار الكتابة: إما أن تكتبها أو تكتبك.

في هذا الإطار الأعم يجب أن توضع الترجمة وتعالج مشكلاتها من حيث هي ظاهرة حضارية صارت من الخصائص المميزة للمرحلة الراهنة في العالم كله. وفي إطاره أيضاً علينا أن

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

نفهم العدد الأكثر . والأهم في اعتقادي . من صعوباتها وإشكالاتها بوصفها إحدى تقنيات التواصل بين الأمم والشعوب وأيضاً بين حاضر الإنسان وماضيه.

هذا الذي اعتمدته، ضمناً، في محاولتي فهم مشكلات الترجمة، العامة منها والخاصة بلغتنا، والترجمة بعد، كما صار واضحاً بالممارسة الثقافية، واحدة من ركائز الثقافة العربية في القرن العشرين. وهذا ما أدركه وتوقعه رفاعه رافع الطهطاوي في الثلاثينيات من القرن الفائت عندما أسس دار الألسن وترجم ما ترجم من كتب، موضوعاتها متعددة بتعدد ما اعتقد أن مصر كانت بحاجة ملحة إليه آنذاك.¹ وما يزال حتى اليوم الطلب على الكتب المترجمة في تزايد تسارع في ربع القرن الأخير، والعرض وإن كان كثيراً، فهو مقصر عن الطلب. ذلك أن من السمات المميزة للمجتمع الاستهلاكي هو استنارته لحاجات كانت في السابق مضمرة أو مكبوتة، لا بل إنه بمعنى ما، مولد للحاجات، ومن هذه الحاجات ما هو مشروع كحاجة الطالب الجامعي إلى مراجع، والباحث إلى وثائق، أو حاجة الحزبي إلى تعميق أيديولوجيته، والطفل إلى ما يفتح وينمي قدراته. وابن الشعب إلى ما يشده باستمرار إلى الثقافة... وأيضاً وبالدرجة الأولى المثقف وأحياناً الإنسان. أي إنسان، إلى الثقافة العامة وإلى التواصل المستمر مع زمانه وكلاهما والكل من مستلزمات الحضارة الحديثة، والحاجات غير المشروعة تعد أكثر، عدداً فالفيديو والسينما والتلفزيون، هي والمجتمع الاستهلاكي، حركت ما كان كامناً من الغرائز، لا بل هيجهت وحولت أحياناً كلا منها إلى مجموعة حاجات لا ترتوي.

وهنا يُفرض علينا سؤال أساسي، هل يقتصر دور الثقافة على تلبية حاجات، أو دور السياسة الثقافية على سد ثغرات؟

بلى، في مرحلة أولى. بعدها يجب على فعل التنقيف أن ينتقل من التلقي إلى المبادرة. لقد

¹ ترجم الطهطاوي كتباً في التاريخ والجغرافيا، في الحقوق والمنطق، في الطب والهندسة، في الأدب والشعر. ولكن الموضوعات التي ألف فيها كانت أكثر تقارباً.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

أنهى الإعلام الجماهيري مرحلة عفوية الجماهير التي كانت الأساس في ديمقراطية القرن التاسع عشر، وبدأ معه، ولأسباب أخرى، عهد العقل المنهجي والمعرفة المنظمة. أو يمكن المواطن العادي مثلاً أن يسهم في إدارة الشؤون العامة إذا كان عاجزاً عن تحليلها تحليلاً أولياً، وعن فهم آلية الدولة التي تخطط لها وتتولى التنفيذ؟ وتلك هي الثغرة الكبرى في العمل الثقافي العربي: إن مبادئته تقوم على ارتجال ما يلبي حاجات كثيراً ما يجعلها الطرف الخارجي ملحة فيطالب الجمهور بإرضائها والمبادأة الحقّة تقوم على استباحة الزمن بالتخطيط لتنمية حاجات خلاقة أو مستقبلية. وعندها نكون قد تجاوزنا نظام الحاجات غير المعقول أحياناً إلى نظام الذكاء الذي هو توقع.

وثقافة الذكاء، سمعتها وعمقها، عموميتها وتخصصها، تعيدنا إلى الثقافة العامة التي أشرت إليها. وهي عمل لا ينتهي، حصيلته ورصيد ضروري للشاعر والفيلسوف، للروائي والباحث للطبيب والمحامي... للإنسان العادي، وباختصار لكل من تؤهله مواهبه للقيام بعمل منتج. فالنتقيف الذاتي المستمر في طليعة الحاجات التي على السياسة الثقافية أن تعنى به. وكذلك البحث العلمي الذي صار اليوم ضرورة اجتماعية حيوية، ترصد له الدول المصنعة شطراً كبيراً جداً من موازنتها لأنه، وحده، يضمن لها المنعة والنفوق. وهو، فيما اعتقد، الأساس الذي يجب أن يقوم عليه استقلال اسم العالم الثالث الثقافي، وهذا بدوره هو أساس الاستقلال السياسي والاقتصادي.

وثمة جانب آخر من الجوانب التي تتجاوز فيها الترجمة نظام الحاجة . بالمعنى الضيق للكلمة . قليلاً ما ننتبه إليه .

لقد لاحظت، بحكم الاهتمام، أن الأمم الأوروبية، جلها إن لم يكن كلها ما برحت منذ عصر نهضتها إلى أيامنا، يترجم كل منها إلى لغته، هو ميروس والمسرحيين، افلاطون وارسطو وغيرهم من أعلام الثقافة الاغريقية، وكذلك فيرجيليوس وشيشيرون، اغسطين، وتوما الاكويني وغيرهم من أعلام الثقافة اللاتينية، وتشرحهم وتعيد الترجمة والشرح والتعليق إلى ما شاء الله بحيث يحق للمرء

الذي لم يدرس الموضوع أن يتساءل: أو لم يتفق القوم بعد قرون من البحث، على الأقل، على ترجمة تحاذي الأصل؟ وإذا كان ذلك لم يحصل فما السبب؟ أهو المصطلحات؟ أم معاني المفردات والعبارات وربما النص؟ ولم لا يحتكمون إلى أكاديمية تنتهي الخلاف بينهم؟ أو يمكن أن تكون معطيات الخلاف غير واضحة بعد محاولات فاضت أحياناً عن العشرات وربما أكثر بكثير؟

لقد أجبت جزئياً عن هذه الأسئلة عندما قلت إن الترجمة قراءة ولكل ثقافة، لكل عصر.. لكل قراءته. والقراءة دوماً خلافية، وأضيف الآن ملاحظتين تكملان جوابي: الأولى هي أن في نص المفكر الكبير، شاعراً كان أم فيلسوفاً، من "اللامعقول" على حد تعبير هيدجر، ما هو بعدد الآفاق التي يشقها، وهذه قد تكون بعدد غير محدود، وكل منها إمكان قراءة. والقراءة هنا استعادة والاستعادة ضرب من ضروب التأليف. الثانية هي أن القراءة التأملية للأصول، أصول الحضارة الإنسانية وأصول الوجود الاجتماعي . التاريخي (أي القومي) هي الفعل الذي به نجعل الماضي بإمكاناته المستقبلية، ماثلاً في الحاضر... والترجمة أو قراءتك الآخرين في لغتك كما قلت، إن هي إلا تمتك الإنسان منه وضمه إلى تراثك. وهذا ما يجعل من ترجمة أصول الحضارة، إغريقية كانت أم عربية، هندية . صينية أم أوربية، إجراء ثقافياً من المستوى الأرفع وعلى درجة حاسمة من الخطورة. فماذا ترجمنا، نحن العرب، من هذه الأصول في مرحلتنا الراهنة؟ بعض النصوص الأدبية القليلة تمّ نقلها بضغط من المثقفين. أما الفلسفة والدراسات التحليلية فيندر أن تعثر عندنا على ترجمة متقنة لواحد من آثارها. فمثلاً (تحليلات أرسطو . ويعرف باسم المنطق)، وهو الأساس الذي قامت عليه . وما تزال . البرهنة العقلية، والذي . شكلت . ترجمته أو معرفته من قبل أجدادنا نقطة تحول في تاريخنا الفكري، ما يزال يدرس حتى الآن في جامعاتنا . هذا إذا درس . في خلاصات سرعان ما ينساها الطالب بعد الامتحان لأنها فعلا غير مقنعة. وإلا مثله بعدد يكاد يكون غير متناه في هذا المجال.

تلك نماذج من الأسئلة التي يجب أن يطرحها على ذاته. المخطط لسياسة الترجمة وللسياسة الثقافية بشكل عام. إذ إن الثقافة سيرورة تاريخية تنطلق من الفعل الذي ينشئها مستقبلاً وهو

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

استعادة الماضي وقراءة . أو ترجمة . للآخر . وتدرجياً تنشأ فسحة جديدة، إذا كانت حقاً أصيلة، فإمكانات الماضي الحية في أساسها والإنساني حصيلتها المستمرة. إن الآخر والماضي بعدان من أبعاد كل ثقافة. والذي يستدعي الانتباه اليوم في ثقافات الأمم والشعوب غير المصنعة، هو أن حضور الآخر . العالم المصنع . فيها يبلغ أحياناً درجة من القوة تكاد تفقد الذات القومية أصالتها وتلتحقها به وهذا ما يربك المشرفين فيها على شؤون الثقافة إلى حد الإرهاق أحياناً، ويدفع بعضهم إلى التمرد على الأجنبية فثمة الانكفاء على التراث والتقوقع.

الآخر، بشكل عام، حاجة من حاجات الذات، فهو يكونها وهي بدورها تكونه. إلا أن هذه الحاجة أخذت عند الأمم غير المصنعة، شكلاً طاعياً في المرحلة الراهنة. فالذات تريد الآخر وتخشاه، تطلبه بإلحاح وفي الوقت ذاته ترفضه بعنف. وسيستمر هذا التأرجح بين الماضي والحداثة إلى أن تستعيد هذه الأمم وكل منها قدرتها على الإبداع فتؤلف بين الاثنين.

وذلك هو الجذر الأعمق لأشكال الترجمة عندنا.. فهي طريقنا، أقله بداية طريقنا، البداية المستمرة لطريقنا، إلى التحديث الذي هو مستقبلنا، شئنا أم أبينا. في حين يبدو الآخر للغتنا وكأنه الغريب، يحتل الدار عنوة، ولهذا نرفضه، ونحن . أي المترجم . نتصرف وكأننا نرغمها على قبوله.

فالإشكال في صميم الذات التي ندرك معاً، غريتها وموضوعية الحاجة. وبالفعل فإن الشباب المثقف يقبل بنهم متزايد على الكتب المترجمة: وحدها ترضي ميله إلى معرفة موقعنا من المرحلة التاريخية ودورنا فيها. في حين أن السلف الذي يمثل ذاكرة الأمة، هو بين أحد فريقين: الواحد يرفض التجديد . في اللغة . رفضاً قاطعاً، الثاني يبحث عن تسوية بين الخطين المتعارضين.

وسيبقى دوماً على ما يبدو، ممثلون للخطين. الاتساق، في سن متقدمة، قد يكون غيره في سن الشباب. وهذا حديث آخر. فالتأرجح إذا في ذاكرة الأمة. وهذا وضع محفوف بالمخاطر في غياب سياسة ثقافية واعية بمقياس المرحلة: والأخطر منه بكثير هو السياسة الثقافية القصيرة النظر والمحدودة الأفق.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

فالنظام لحركة الترجمة هو الصدفة، وواقعها، لحد كبير، هو الفوضى، والأكثر إبلاماً للنفس هو أنه لا يوجد في الأفق المنظور ما يشير إلى أننا وطننا العزم على الخروج من هذا المأزق، حتى كأننا نتوقع من الصدفة أن تصلح ذاتها. وهذا ما يحصل فعلاً.

ثمة عرض وطلب والمبادهة حتى الآن، للعرض أكثر مما هي للطلب. فالكتاب يستثير الحاجة، وهذه تستدعي الطلب، وبالفعل فإن المثقف، وهو المستهلك الأكبر للكتاب العربي المترجم، كون لذاته، بنتيجة التراكم أو بفعل عوامل كثيرة أشير عرضاً إلى أهمها، قناعات تحولت حاجات وميولاً توجهه عند انتقاء الكتاب، والانتقاء هو سبيله إلى التأثير على العرض.

والعرض أي إنتاج الكتاب بيد أحد فريقين، جملتهما سابقاً في كلمة "المشرف على الشؤون الثقافية" الأول هو القطاع الخاص أو التاجر، وله، حتى اليوم المفعول الأول في تكوين المثقف العربي والثقافة العربية، من جهة لأنه الأغزر إنتاجاً، الأحسن توزيعاً والأكثر انتشاراً، ومن جهة أخرى لأنه متحرر من المستبقات والمحرمات الكثيرة التي تقيد حرية الفريق الآخر الذي هو القطاع العام وجهه من الموظفين. فهو أي التاجر جريء، مغامر، رغبته في الإثراء ترد أحياناً إلى درجة الصفر روادعه الأخلاقية.

فمقياس التاجر هو بالدرجة الأولى الربح. وهذا حقه إذ إنه الضامن لوجوده ولاستمراره في الوجود. أما مقياس الدائرة الرسمية فهو ايديولوجية الحاكم التي قد تضيق إلى حد الاختناق، مما يجعل نفس الشاب مهيأة للانفلات من الضوابط كافة إذا وجد إلى ذلك سبيلاً. وعلى أية حال فإن الحاكم أسير شعاراته وما يعتقد أنه يفيد دعاوته أي يثبت سلطته ويدعمها. وفي الحالتين، أو في غياب كل تخطيط، المقياس فضفاض، ضمن حدوده الذاتية، يمكن تفسيره بأشكال مختلفة مما يضع سياسة الكتاب المترجم، والمؤلف . بيد منتجه الفعلي.

فالموظف المنتج للكتاب، فرداً كان أم جماعة، توجهه في غياب التخطيط المنهجي، ثقافته، أفضلياته، ذوقه، الانطباعات التي تتركها فيه قراءته للصحف والمجلات الأجنبية... وأيضاً نزواته، وأحياناً ما يعتقد أنه يرضي رؤسائه. ومن الطبيعي أن يستلهم الناشر . التاجر السوق التي

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

فيها زبائنه أي الفئة الاجتماعية . السياسية التي يتعامل ويتفاعل معها، وأيضاً غرائز المراهقين، وسن المراهقة طويلة في بلدان العالم الثالث، وفضول الناس المشروع وغير المشروع... فالمعايير، في الحالتين، ذاتية، قيمتها الإجرائية والذاتية بقيمة من يستخدمها.

ومع ذلك ورغم سوء الترجمة في أغلب الكتب المترجمة، على الخصوص التجارية منها، فقد كان لتجاوب القراء السريع والواسع معها نتائج كثيرة، جلها ايجابي، أرتبها، كما بدت لي حتى الآن في زمرتين كبيرتين على أمل أن تدرس، يوماً، علمياً من وجهات نظر متعددة، أهمها تطور اللغة العربية ابتداء من بدايات نهضتنا، وكانت الترجمة من أهم عوامل هذا التطور.

وثمة في الوطن العربي كما في أي بلد آخر أفراد يتزايد عددهم باستمرار، يضحي كل منهم، من أجل مواصلة تثقيف ذاته، وجلهم من الكتاب، وهم، ويشكلون الفئة المثقفة بالمعنى الصحيح للكلمة، إذ كونوا بأفضلياتهم ما يمكن أن أسميه أقدنية الثقافة العربية في وضعها الراهن، نعرفها من حركة الطلب العفوي على الكتاب، وهي:

1. ترجيح التأليف الفكري أو التحليلي على الأدبي.

2. ترجيح المترجم على المؤلف:

3. ترجيح الكتاب الذي يعالج المشكلات الراهنة على الذي يقتصر على قضايا الماضي.

4. الأعراض عن النظري الخالص وتفضيل تحليل الواقع عليه.

وثمة استثناءات تفرضها شهرة بعض الأسماء العربية والعالمية أو الهالة الخاصة التي إحاطتهم بها دعاوة ما.

ومن الملحوظ أيضاً:

أولاً، الإقبال الذي تزايد خلال السنوات العشر الأخيرة في أوساط كثيرة على كتب تبسيط العلوم الطبيعية.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

ثانياً، تكاثر عدد الأطفال واليافعين الذين يقرؤون الكتب والمجلات التي تتحدث إلى الخيال. وهذا أمر طبيعي جداً.

هذه الألفية فرضيات يمكن أن تدرس إحصائياً على ضوء الإمكانات . القليلة المتاحة لتوزيع الكتاب وانتشاره بين الأقطار العربية، كما يجب أن توسع بحيث تشمل الزمرتين الكبيرتين من الكتب اللتين أشرت إليهما وقلت بضرورة ترجمتهما تدريجياً وهما أصول الحضارة الحديثة وفكرها الطليعي أو المستقبلي.

وثمة نتائج تتعلق بالتبدلات الجذرية التي دخلت على الكتابة العربية نثراً وشعراً وكادت تقلبها رأساً على عقب وأهمها.

1. الإبدال البطيء المستمر للأسلوب الخطابي الموروث عن عصر الانحطاط، وقوامه تنميق الكلام وتفخيمه على حساب المعنى، بالنثر البسيط، يحاذي الواقع المعيش وأحياناً لغة التخاطب.

2. تجديد المفردات بإضافة معان، كثيراً ما حلت محل معانيها القديمة أو نحت مفردات للتعبير عن صور ومعانٍ إضافتها الحياة الحديثة إلى حياتنا، ولقد صارت هذه المفردات والمعاني المستحدثة بالعشرات بحيث يبدو لي أنه لو فكر أحد اللغويين بإحصائها وشرحها لامتدت لائحته وصارت بحجم معجم كبير.

3. إبدال أغلب الأجناس الأدبية الموروثة بأخرى مقتبسة عن العالم المصنع، ومنها القصة والرواية والمسرحية أو الدراسة والمحاولة... وتعريبها اقصد إعادة إبداعها من منطلق عربي.

4. وكان شعر الحداثة في أواسط الخمسينيات من القرن الحالي آخر حلقة من حلقات هذا التطور وأكثرها جرأة وجذرية.

وكلها بدايات واعدة لإنهاء الماضوية بجعل العربية لغة تحليلية، وإحلال الكتابة فيها محل الكلام، أو باختصار لتجديد رؤية العربي إلى ذاته وإلى العالم أو إذا شئت أيضاً جعل العربي

أكثر انفتاحاً على العالم.

لم تكن هذه التبدلات الهائلة والممتدة على حوالي قرن ونصف والتي ستستمر متسارعة لزمن طويل من عمل الترجمة وحدها بدون شك. فباتصالنا المتزايد بالبلدان المصنعة، تعلمنا لغاتها، واقتباسنا نظمها في التعليم والإدارة والتشريع وأيضاً التأليف الأدبي الذي تقدم متسارعاً في ربع القرن الأخير، وربما بالدرجة الأولى استخدامنا المتزايد للآلة الأكثر دقة وتعقيداً، كل ذلك كون مناخاً، الترجمة كانت وما تزال من أوجهه الهامة وهي، في كل الأحوال، المدخل إليه.

هل سقط النموذج العربي الكلاسيكي الذي ضمن للعربية، طوال قرون، قدرتها المتفوقة على الإبانة ومنزلتها الرفيعة بين لغات العالم؟ هذا ما يؤكد أنه أنصار القديم جازمين. وإلى هؤلاء يوجه السؤال التالي: ما هو هذا النموذج؟ أين وكيف نجده؟ فمن رسائل وخطب الخلفاء الراشدين في إيجازها المعجز بإبانته إلى مقدمة ابن خلدون أو إلى الموسوعات الكبرى في علم الكلام، ثمة عشرات النماذج التي تعاقبت على النثر العربي، بعضها كان حقاً نموذجياً، منها على سبيل المثال ما كتبه الجاحظ والأصفهاني والتوحيدي.. وفي أيامنا الرافعي، وشكيب أرسلان.. فإياها المقصود. كان يبدو لنا، نثر طه حسين، في أواسط الثلاثينيات من هذا القرن، ركيكاً، رخواً بالقياس إلى عبارة مصطفى صادق الرافعي المنحوتة كبيت من الشعر القديم في إيجازها وخبراتها.

ولكن اليوم بعد حوالي نصف قرن، منْ منْ الأجيال الناشئة يذكر الرافعي والبشرى وأيضاً، مع الأسف، شكيب أرسلان..؟ في حين أن الشباب كأسلافهم يعجبون بـ (أيام) طه حسين والباحثون يكملون المنهج الذي اعتمدته في دراسة الأدب والتاريخ.

إن الذي بدأ يسقط من الشعور . الشعور وحده . وما كان يجب أن يرتد منذ زمن طويل إلى اللاشعور المطلق، هو عالم العربي الذي أبقاه الشعر، هو والكثير من البنى والقيم الاجتماعية التقليدية، جاهلياً حتى اليوم (أواخر القرن العشرين)، كما يسقط اليوم متسارعاً نثر عصر الانحطاط.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

تلك بديهية. أنه لا يوجد، عملياً، نموذج للكتابة في أية لغة من لغات العالم. لا بل إن مفهوم النموذج الذي تبنته في الأدب والفكر بعض الشعوب القديمة، ومنها العرب، وحررنا من تسلطه مفهوم التقدم، مقولة ماضوية رجعية، إلا أن عصر الأنوار لم يشمل بعد العالم كله. وبقي أحياناً، حيث وجد على السطح من الحياة الثقافية، والواقع أن كل كاتب، كل مثقف واع لدوره، يتمثل ما استطاع من نتائج أعلام الماضي، ثم يكون لذاته نموذجاً يتوافق مع معادلته الشخصية ومع مستلزمات فنه وعصره.

المؤسف حقاً هو أن الحضارة التقانة (التكنولوجية) التي بدأت ترين متسارعة بكل ثقلها علينا منذ بعيد الحرب العالمية الثانية، أقامت سداً منيعاً بين الشباب وماضيهم. فأعلام التراث لم يسقطوا وإنما تواروا من أفق الشاب الذي ينسى، بعد الامتحان، ما حفظه منهم قبله: افهم غرباء عن المرحلة! ذلك هو موقف الفتى العربي من أجداده. فالإدانة، لاشعورياً، قاطعة. وهي تشكل ثغرة كبيرة ستتسع، على ما يبدو، مع الزمن، على حين أن التراث هو النواة الصلبة التي يقف عليها الإنسان الاجتماعي. التاريخي، ومنها ينطلق لبيني مستقبلي الذي سيكون غير الماضي وإياه. وإن اللغات الأجنبية، ومهما كانت درجة إتقان المرء لواحدة أو أكثر منها. وهذه اليوم ضرورة حيوية. ليست إلا وسيلة بالقياس إلى لغتك. الأم حيث تجسد عالمك. فالقطيعة مع التراث تفقد المتكلم والكاتب، بنسبة سعتها وشدتها رصيدها، هو وسيلته الوحيدة إلى العالم وإلى ذاته. من المسؤول عنها؟ تلك مسألة تحتاج إلى دراسة خاصة.

على أية حال فإن القطيعة هذه هي واحدة من الأسباب الرئيسية لتدني مستوى التعبير الذي عمت الشكوى منه، والذي قد يبلغ أحياناً حداً لا يطاق، كأن تقع على خطيئات في الإعراب عند أحد الكتاب.

واللغة تحيل إلى الفكر. كما أن الفكر يحيل إلى اللغة، كل منهما يرتكس تدنيه على الآخر. وهذا هو الدور الفاسد، على حد تعبير المناطق، حيث النتيجة تستحيل سبباً، ونجده أيضاً في المدرسة: فالمعلم الضعيف ينتج تلميذاً أضعف؟ وهذا بدوره يصبح معلماً فتلميذه أدنى منه

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

مستوى، وهكذا إلى أن نفجر الحلقة المفرغة من الداخل من نقطة تشكلها الأولى التي هي المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الثانوية التي توسعها وثبتتها فالجامعة التي تثبتناها على أنها الأمر الواقع، وتعمقها؟

... وأخيراً إلى الإعلام الذي يجعل منها سنة

وتأتي الترجمة في المرتبة الرابعة من سلم الأسباب. وهي أيضاً بدورها نتيجة تستحيل، سببا. فلا يسلم من هذا الطوفان إلا من أوتي موهبة متفوقة. ومع ذلك فالمناخ العام يؤخر، في أحسن الحالات، تفتح المواهب أياً كانت قدرتها، سنوات قد تتجاوز الخمس عشرة.

هذه الأسباب المترابطة لا تفهم بدورها إلا إذا وضعت في الإطار العام الأشمل الذي استدعاها وهو المنطق التاريخي الحاسم الذي تجتازه المجتمعات الإنسانية ونطلق عليه اسم "الحدثة"، والذي يضع الفكر الإنساني، مضموناً وتعبيراً، وأيضاً المؤسسات الاجتماعية والثقافية، موضع إعادة نظر جذرية قد لا تنتهي قبل سنوات. وهذا واضح في جانبين من جوانب اللغة شددت على الثاني منهما:

الواحد، تكاثر أساليب التعبير في اللغات كلها تقريباً وتبدلها السريع.

الآخر، تكاثر المفردات غير المألوفة أما بالنحت أو بإضافة معان جديدة إلى المفردات القديمة.

كما أنه واضح بالدرجة الأولى في عجز الفكر عن الإحاطة بمعطيات العلوم كلها وأيضاً بمعطيات التجربة الإنسانية، باستيعابها والتأليف بينها في لوحة واحدة دالة توحد عالم الإنسان، تجعله معقولاً وشفافاً. ومن وجه آخر فإن الإنسان الحديث راكماً أمامه من الأشياء (بالمعنى الأوسع للكلمة) وفي داخله من الأهواء والتجارب ما جعله عاجزاً عن ضم شتات ما يرى ويعي معناه أو إعطائه معنى (والاثنان واحد).

ولهذا بدا الوجود لعدد كبير من أكابر الشعراء والمسرحيين والروائيين غير معقول أو غير دال أي غير ذي معنى.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

وأيضاً تلقى، مرة بعد مرات، مسألة الدلالة. فصعوبات الترجمة وإشكالاتها، إن هي إلا وجه من أوجه صعوبات وإشكالات التعبير التي هي أعم واشمل. فما بالك إذا كان عليك أن تقرأ. في الترجمة وأيضاً في التأليف. قراءة غيرك للموجودات؟ وتلك مشكلة العالم غير المصنع فهو مستهلك لإنتاج العالم المصنع، آلة كان أم نصاً، أشياء أم أفكاراً.

وبالفعل فقد استخدمنا أكثر من وسيلة لرفع مستوى التعبير لدى الأجيال الناشئة، أهمها على ما أعلم:

1. زيادة حصص تدريس العربية حتى الشهادة الثانوية وإضافة حصص لها إلزامية في كليات الجامعة كافة.

2. إقامة دورات تدريبية لمدربي اللغة العربية، للإعلاميين ولبعض كتبة الدواوين الحكومية.

3. تكليف مختصين بإلقاء دروس في الإذاعة والتلفزيون تشرح القواعد الأساسية للغة وتشدد على الخطيئات الأكثر شيوعاً.

4. مراقبة النصوص من قبل متخصصين بالعربية وإصلاح خطيئاتها اللغوية قبل نشرها.

ولا يمكن المرء أن يخمن مدى تأثير هذه الوسائل وغيرها، ومنها تدريس العلوم بالعربية، على رفع مستوى التعبير عدد بعضهم. قد يكون لها مفعول ما على المدى البعيد، ولكنها لم توقف حركة التدهور التي تأخذ شكلاً شبه حتمي ولن توقفه، من جهة لان حركة التعلم والتعليم أقحمت في دور فاسد، أشرت إليه للتو، ومن جهة أخرى لأنها، في الوضع الراهن، بمثابة تحذير لداء نغمض أعيننا كي لا نبحث عنه، رغم أننا نعرف أنه آخذ في التفاقم. واصله، فيما أرى، هو أن الحداثة التي هبطت علينا، مفاجئة، أخذت تبدل بسرعة علائقنا بالموجودات، أناساً وأشياء، وتبدل من نَمَّ حساسيتنا وعقليتنا.. ورؤيتنا للوجود، ومع ذلك ما نزال نطلب من أسلوب التعبير الموروث عن قرون من الجمود، أن يستمر دون تبديل، وإن يؤدي علماً ليس معداً لأدائه. وهذا أيضاً دور فاسد آخر.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

ويقول آخر مبسط ومشخص، قد انتقلنا بين عشية وضحاها من استخدام الحمار والبغل، الجمل والحصان للانتقال من مكان لآخر، إلى استخدام السيارة والقطار والطائرة، فهل يمكن الأداة التعبيرية أن تبقى هي بحرقيتها؟ وأهم من ذلك: هل يمكن الإنسان الذي بلور هذه الأداة وبلورته أن يبقى هو في قيمه وبناء وعلائقه، الأساسي منها والفرعي؟

الأمر الذي لاشك فيه هو أن حركة النهضة قد طورت، خلال قرن ونصف القرن ونيف، بشكل ملحوظ وأحياناً جوهري، الاثنين معاً، وأن الترجمة لعبت دوراً أساسياً أخذاً بالتزايد في هذا التطور. إلا أنه غير كاف للحاق بركب الحضارة بدليل أنا ما نزال مستهلكين للحضارة. وغير كاف أيضاً لأنه غالباً ما يتم بفعل المرحلة لا بمبادهة منا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الحضارة الحديثة تسير متسارعة في حين أن تطور اللغة والإنسان دوماً بطيء.. والأكثر مدعاة للقلق هو أن الإنسان العربي، مثقفاً متخصصاً وإنساناً عادياً، أدبياً ومفكراً، حاكماً ومواطناً.. يتصرف وكأنه غير قلق لا على لغته ولا على ذاته. وثمة خوف في أعماق النفوس يتحول بين فينة وأخرى إلى دعر يدفع المسؤولين إلى ارتجال تدابير تغطي المشكلة أكثر مما تعالجها. كأن يعقد مؤتمر لتطوير التعليم أو لاقتراح إستراتيجية ثقافية، وبعد أسابيع، بعد أشهر، وأحياناً بعد سنوات من البحث والتداول، توضع توصيات عامة صالحة لكل زمان ولكل مكان، تعبر عن مقاصدنا النبيلة أكثر مما تعبر عن واقعنا، كأن ترتجل تدابير لرفع مستوى اللغة كالتي ذكرت للتو، بهذا يتعاون المسؤول مع الزمن على امتصاص موجة الخوف، بل يكتبانها وتدرجياً تعود الأمور إلى مجاريها وكأن شيئاً لم يكن.. ونبقى عاجزين عن الانتقال من التلقي إلى الفعل، لسبب بسيط في منطقته واشد الأمور تعقيداً في حقيقته هو إنا نجهل واقعنا، بل نخشى رؤيته هو كما هو، فالإصلاح عندنا، عملياً هروب من الواقع، وأحياناً الابتعاد عنه.

ونتجاهل هذه الحقيقة التي جعلتها التجربة المتكررة بديهية، وهي أن العروبة، شأنها شأن أيّ قومية أخرى، موقع من العالم، أبعاده الوجود الإنساني الاجتماعي، هذه الأبعاد التي هي ثقافية وتاريخية، اقتصادية وسياسية والموقع هذا ليس معطى مرة ولكل مرة. إنه فعل، متى تراخي

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

امتدت يد الأجنبي تستولي عليه.

وفعل التعريب هو، اليوم ولزمنٍ طويل، في نقطة المحور من فعاليتنا الثقافية لإعادة إنشاء هذا الموقع، أو لإنشاء إنسان عربي بمقياس القرن الواحد والعشرين.

والتعريب هو إذاً، أن ننطق الحادثة من موقع عربي.

والترجمة، إن هي إلا المدخل للتعريب.

وهذا يبدأ . ويتناسب طردأً وعكساً . مع إسهامنا، أيا كان حجمه عدد نقطة الابتداء، في إنشاء الحضارة الحديثة.

والحادثة، كما هو معروف، وفي أحد من تعريفاتها الأكثر أساسية، برمجة. فما هو برنامجنا لدخول الحضارة الحديثة؟ هل تمكنا حتى الآن، كلنا معاً، أو أي قطر على حدة من وضع سياسة ثقافية تتطلق حقاً من دراسة دقيقة لواقعنا، في قواه وإمكاناته البشرية والطبيعية؟ في حركة سيره، في بناء المتخلف منها والمتقدم؟.. سياسة تمهد لدخولنا أو لدخول أي قطر من أقطارنا في حركة التحديث التي قطعت البلدان المتقدمة أشواطاً على طريقها؟

مع الأسف: لا.

وهذا هو التخلف بالذات: ألا تكون المبادهة في شؤونك بيدك.

لقد أشرت، في هذه الفقرة بشكل خاص، إلى بعض عناصر هذه السياسة وإلى بعض المشكلات التي يجب أن نتصدى لها. وقد يشير غيري إلى غيرها. ولكن وضعها يتخطى حدود معرفة الفرد وخبرته. وقد يتخطى حدود قدرات القطر الواحد مهما كانت كبيرة. إنها من عمل هيئات متعددة الاختصاصات تعمل طوال سنوات على مستوى الوطن العربي مستقلة عن أيديولوجية الحاكم وموقفه السياسي.

ونتائجها هي التي يبنى عليها ما يلي: الثقافة العربية بوصفها تقريباً.

واضحة، فيما اعتقد، نتائج ما تقدم:

لا تتفصل الترجمة عن التأليف. وكلاهما وجه من أوجه فعالية أعم تشملهما هي الفعالية الثقافية التي تتمركز اليوم حول فعل التعريب. وهذا في أعمق حقيقته، صراع مع الآلة وحضارتها التي تقتصر من ليس من مقياسها، وصعوبات الترجمة ومشكلاتها وإشكالاتها، لا تفهم ولا تذلل . ضمن الحدود المتاحة لتذليلها . إلا في إطار المرحلة التاريخية التي نجتازها والتي تتميز عن المراحل السابقة، بالتحديث.

والتحديث، ترجمة كان أم تأليفاً، اقتصاداً أم سياسة،.. برمجة. فمتى صممنا، فعلاً لا قولاً، على دخول عصر البرمجة، أي عندما نوظف أرصدتنا البشرية والمالية لهذا الغرض، نستطيع الشروع في تحديد مشكلاتنا بدقة تزداد بنسبة تقدمنا على طريق التحديث، ونمهد، في الوقت ذاته، لحل هذه المشكلة أو لتجاوزها.. وما عدا ذلك، فهو، في أحسن الفرضيات، مقاربات إن دلت فعلاً على موطن المشكلة، تكون قد أدت الغرض منها، عند هذا الحد يقف عمل الفرد.

والترجمة التي هي اليوم إحدى المشكلات الكبرى في الوطن العربي، كما في أي بلد غير مصنع آخر، تتجاوز الفرد والقطر الواحد. إنها مشكلة عربية، فلا يمكن أن تحل إلا على المستوى القومي.

ومن هنا يأتي دعم المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق في مقدمة الأولويات، إذ ينبغي تعزيز هذا المركز وتوفير مستلزماته المادية والبشرية لتحقيق الأهداف المرسومة له في إطار العمل العربي المشترك.

التحريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

بحوث

معربة أو مترجمة

تكوين نظرية أقسام الكلام وبنائها

في العرف النحوي العربي *

جان باتريك غيوم

ترجمة الدكتور سام عمار

كلية التربية بجامعة دمشق

هناك منهجان ممكنان قبلياً لدراسة المشكلة التي تهمننا: أولها يرجع إلى تناول المسألة "من القمة"، انطلاقاً من نصوص مخصصة صراحة لعرض النظام المستعمل في العرف النحوي العربي (وسنرمز إليه من الآن وصاعداً: ع.ن.ع) وتعليقه؛ أو إلى تعريف كلٍ من الفئات الثلاث الكبرى التي تؤلفه. أما المنهج الثاني، وهو أكثر صعوبة وتعقيداً، فيرجع إلى التساؤل عن العمل المنسجم والتقني للنظام على مستوى التحليل لحالة خاصة، ويرجع خاصة إلى دراسة الإجراءات التي يستعملها النحويون ليفسّروا، بالاعتماد على نظام تصنيف فقير من الناحية المفهومية وعالي التجريد بالنتيجة، تعدّد وتنوّع المعطيات الخبرية (Empiriques) التي تمسكوا دائماً بمعالجتها بكل تعقيدها. إنني مقتنع أن منهجاً من هذا النوع يسمح بإكمال وتحديد الصورة "الرسمية" التي تقدمها النصوص المكرسة صراحة للمسألة. بقي أن هذا المنهج، بحكم طبيعته ذاتها، يتطلب أن تُتناول نقاط تقنية جداً في الغالب، تقتضي مناقشات محددة ومفصلة وتفترض معرفة معمقة

* نشر هذا البحث في مجلة: LANGAGES، العدد 92، كانون الأول 1988 ص ص 25 36. وهي مجلة فصلية تصدر عن دار لاروس في باريس.

للمعطيات اللغوية الملائمة. ولذلك بدا لي أن من المفضل، في إطار هذه المقالة، أن أتمسك بأول المنهجين اللذين ذكرتهما آنفاً؛ ويبدو لي، مع ذلك، أن الجانب "الرسمي" لنظرية أقسام الكلام في العرف النحوي العربي لا يتقصه نقاط قابلة لأن تقدم فائدة على المستوى الشمولي.

1. الاقتصاد العام للنظام

لنتذكر أولاً أن نظام العرف النحوي العربي (ع.ن.ع.)، كان، على مدى تاريخه، موضوعاً لإجماع شبه كامل.¹ فمنذ أن ظهر مبنياً بشكل كامل منذ سيبويه، وربما قبله، لم يكن أبداً موضع احتجاج جدّي. ومع ذلك يمكننا أن نذكر بعض النقاشات حول وضع العناصر الفريدة النادرة،² ولكن هذا الأمر يبقى هامشياً جداً. إن النظام التقليدي يضم إذاً ثلاثة أقسام: الاسم والفعل والحرف وكل من هذه الفئات يضم بدوره فئات فرعية، يبدو لي مفيداً أن نعددها باختصار، لنمكّن القارئ الذي لم يألّف هذه المعطيات من تكوين فكرة أكثر دقة عن التقسيم الذي اعتمده العرف النحوي العربي.

بالإضافة إلى اسم العلم واسم العين تضم فئة الاسم أيضاً المصدر الذي يدل على فعل أو

¹ إن الحالة الوحيدة التي صادفتها ذكرها السيوطي (مات عام 856هـ)، فقد أشار في فصل "الأفراد والغرائب" للأشباه والنظائر في النحو أن أبا جعفر بن الناصر (الذي لم استطع أن أفتي أثره) أضاف قسماً رابعاً هو "الخليفة" يتفق مع ما يسميه النحويون أسماء الأفعال. لتتبيّن أن أسماء الأفعال حُلّت، ضمن الإطار التقليدي بصفتها أسماء، تكمن خصوصيتها في أن مسمياتها ليست أشياء من الكون ولكنها تعاقبات لغوية (sequences). وهكذا فإنّ (صَـة) يعتبر اسماً لـ (أُسكت). وهذا التحليل الماهر، وإن لم يكن مقنعاً، يتمتع بمزية حماية المبدأ الذي يجب أن يكون كل قول تبعاً له مكوناً من عنصرين على أقل تقدير. والواقع أنّ فعلاً مثل: أسكت يحل بشكل مجرد بصفته مكوناً من فعل بحصر المعنى ومن ضمير شخصي مستتر يكوّن فاعلاً لهذا الفعل.

² إن الحالة الأكثر شيوعاً التي يستشهد بها هي (ليس) التي تصرف في الماضي ولا تصرف في المضارع والأمر، وتمثل بنية صرفية مختلفة عن بنية الأفعال. وأغلب النحويين يصنفونها بين الأفعال، ولكن الرأي المعاكس دافع عنه خاصة ابن السراج وأبو علي الفارسي (مات عام 377 هـ). راجع ابن هشام في: مغني اللبيب، ص 386.

إجراء، وينطبق تقريباً على المصدر المحول إلى اسم في الفرنسية (راجع الفقرة 2.2.2). ويشمل كذلك، الصفة، والضمير واسم الإشارة والاسم الموصول وأسماء الاستفهام.

إن الفعل يضم، إضافة إلى الأفعال بحصر المعنى، التي تدل على إجراء فعلي، أفعالاً مساعدة تخص الهيئة (فئة كان) وأخرى تخص الصيغة (فئة ظن)، تمثل سلوكاً نحوياً مماثلاً للأفعال الحقيقية، وتختلف عنها مع ذلك في عدة نقاط. وهو يشمل أيضاً أفعال التعجب والأفعال الجامدة، إضافة إلى (ليس) تبعاً لرأي الجمهور.

الحرف، وهو يشمل كل ما تبقى، ولاسيما أداة التعريف التي لا تتغير في اللغة العربية مع العدد والجنس والإعراب (ليس هناك أداة تذكير بالمعنى الدقيق). إن التقسيم التقليدي تبعاً للعرف النحوي العربي يقابل الحروف التي تعمل بتلك التي لا تعمل. والتي تعمل تقسم كذلك إلى تلك التي تعمل بالفعل فتترك فيها أثراً يتعلق بالصيغة، وتلك التي تعمل بالاسم، ومن بينها حروف الجر.

قبل أن ننهي هذا التفصيل، من الضروري أن نشير إلى نقطة تمّ حولها منذ زمن طويل التباس مؤسف؛ أريد أن أتحديث عن ترجمة الظرف بـ (adverbe)، الذي يبدو أن المسؤول الأول عنه هو مركس (Merx, 1889).¹ وعلى الرغم من التصحيحات التي قدمها هؤلاء وأولئك تبقى هذه الترجمة مزعجة، على اعتبار أن مصطلح "ADVERBE" يشير، في المصطلح الغربي التقليدي، إلى فئة تصنيفية، في حين أن الظرف، في العرف النحوي العربي، يشير، دون أي التباس، إلى فئة وظيفية، أي إلى نوع من التكملة الفعلية متسمة بعلامة المفعولية، ومحددة الشروط المكانية والزمانية للفعل. إن كل اسم يمكنه إذاً من حيث المبدأ أن يحل محل الظرف، ما تناسبت دلالاته المعجمية مع دلالة الفعل؛ وبالعكس، هناك دلالة لبعض الأسماء (ولا سيما تلك

¹ سأترك جانباً الفكرة الأساسية لمركس، وهي أن الظرف هو تقليد أعمى للمصطلح الأرسطوطاليسي "وعاء". والالتباسات التي تستجربها هذه الترجمة تبدو بشكل واضح جداً (ومؤسف) في كتاب فيرستينغ الذي نشره عام 1977، ص 8.

تدل على علاقات زمانية مكانية مجردة) لا تسمح لها بأن تستعمل عملياً إلا بصفتها ظرفاً. ولكن الأمر بالنسبة إلى العرف النحوي العربي يتعلق بسمّة غريبة صرفة لا تسمح لهذا النوع من الأسماء بالخروج من فئة الأسماء، إن الحديث عن "ADVERBES" بمثل هذا الاتفاق يمكن عند الاقتضاء (وكذلك) أن يسوّغ ضمن إطار تبسيط تعليمي، ولكن استعمال هذا المصطلح يجب أن يلغى بشكل ملزم، تحت طائلة خلط خطير، عندما يتعلق الأمر بإعادة صياغة مواقف الصرف النحوي العربي أو مناقشتها.

2. مشكلة الأصول: سيبيويه

إن باستطاعتنا الآن، مادامت هذه الملاحظات التمهيدية قد وضعت، أن نتناول مشكلة بناء نظرية أقسام الكلام في العرف النحوي العربي؛ وسأتبع، في المسائل الأساسية، الترتيب الزمني، مع الإلحاح خاصة على فترة الشكل التي تبدأ في القرن الثاني الهجري وتنتهي في القرن الرابع الهجري. ومع ذلك فبعد هذه الحقبة، ينتمي التطور الأهم لنظرية أقسام الكلام إلى علم الكلام الذي تأثر في تلك الحقبة تأثراً كبيراً بالثقافة الفلسفية الأفلاطونية والأرسطوطالية؛ إنني أريد أن أتحدث عن الأدب الذي تطور حول رسالة الوضع.

وحول هذه النقطة الهامة جداً مع ذلك، تمكن العودة إلى الدراسة الممتازة لـ .ويس . (1976, Weiss).

تبعاً للفرضية التي تفصلها مركس (1889, Mex) أول مرة يكون العرف النحوي العربي قد استعار منذ بدايته من أرسطو (أو على كل حال من العرف الأرسطوطاليسي)، نظامه في تصنيف أقسام الكلام، كما استعار من جهة أخرى ما هو جوهري من الفئات والمفاهيم الأساسية؛ وهذا التأكيد الذي غدا له أنصار منذ زمن طويل، ومازال يأخذه اليوم كما هو، العديد من المؤرخين (العامين)، لا يمكن أن يقبل اليوم إلا مع كثير من الحذر والتحفظ، وذلك لأسباب التسلسل التاريخي من جهة: فالمتن الأرسطوطاليسي لم يكن ممكن البلوغ في اللغة العربية إلا بعد

التكوينات الأولى للعرف النحوي العربي بزمان طويل.¹ وفق ذلك أيضاً، لأن مجمل الإشكالية ذات الصلة بفرضية "التأثير اليوناني" هو في الأصل أمر طارئ على التقليد المستعرب الغربي المرتبط بمراعاة غير كافية للبعد التقني الدقيق للعرف النحوي العربي، هذا البعد الذي يؤلف نواته إلا بنمولوجية الأساسية.

ودون رغبة في الدخول في تفاصيل هذه المسألة، التي سأرجع إليها في عمل لاحق، سأقتصر على الإشارة إلى أنه إن كان هناك فعلاً حالات تسمح فيها أدلة نصية داخلية وخارجية بالحديث عن استعارة أو نقل لفئات من العرف المنطقي النحوي اليوناني نحو العرف النحوي العربي (سنبين بعضها هنا) فإن الأمر يتعلق دائماً بعناصر تابعة بنيوياً، لا يضع إدخالها في نظام العرف النحوي العربي موضع السؤال لا أهدافه الأساسية ولا توازنه الداخلي.² وعلى كل حال ليس هناك أي دليل داخلي أو خارجي يسمح باستنتاج أن هناك استعارة فيما يخص نظام أقسام الكلام.

انطلاقاً من الفصل المخصص لأقسام الكلام في الكتاب لسيبويه (مات عام 177 هـ)،³ الذي يمثل أقدم كتاب في القواعد وصل إلينا، يمكننا في الواقع أن نوضح على الأقل عنصرين يبذوران

¹ سجد ترجمة هذا النص في مقالة تروبو Troupeau: "رسالة الكتاب لسيبويه"، 1973. والاختلافات التي يمكن أن تظهر بينها وبين تلك التي ساقدها لبعض المقاطع ترتبط باختيارات مختلفة للترجمة أكثر مما ترتبط باختلافات حول فهم النص.

² من المتعارف أن كتاب الـ (Peri Hermeneias) لم يترجم إلا في السنوات الأخيرة من القرن الثالث الهجري، وأن كتاب الشعر (Poetique) لم يترجم إلا في بداية القرن الرابع. وينبغي أن نتساءل أيضاً: كم من النحويين، حتى في القرن الرابع قروهما؟ ففي معظم الحالات، في الواقع، تبدو استعارات العرف النحوي العربي من العرف اليوناني مُتَقَاة عبر اختصاصات أخرى، ولا سيما . في تلك الحقبة . علم الكلام.

³ وتلك الحالة التي يكون فيها للاختصاص المُعِير (المستعار منه) موقف مسيطر . بنيوياً . على الاختصاص المستعير يمكن أن تُبنى بانبعثات النحو التأملية في أوروبا في القرن الثامن بتأثير من فلسفة ابن رشد والفيزياء الأرسطوطاليسية (راجع Rosier، 1984، ص 16).

بوضوح في اتجاه مناقض للمنهج الأرسطوطاليسي العرف المنطقي النحوي الهيليني بصفة عامة. أولهما، وهو معروف منذ زمن طويل، يتصل بالطريقة التي يصف بها سيبويه الحرف: "حرفٌ جاء لمعنى، وليس اسماً ولا فعلاً". وهكذا، فنحن نعلم أن أرسطو في الفصل العشرين من كتاب الشعر يصف حرف العطف (Conjonction) والنطق (articulation) بأنهما "أصوات غير دالة"، وهذا يعني الموقف المعارض تماماً لموقف سيبويه.

وما من شك في أننا نستطيع أن نجعل نقيض هذا الأمر فرضية أن العرف النحوي العربي لم يستعر نظامه في تصنيف أقسام الكلام من كتاب الشعر مباشرة (وهذا ما يبدو من جهة أخرى بعيد الاحتمال)، وإنما من صياغات تالية تذكر بفكرة الدلالة بالوساطة: الحروف لا تحمل دلالة في ذاتها، وإنما مع شيء آخر، أو هي لا معنى لها بل لها آثار معنى إن أردنا أن نستعمل مصطلحاً أكثر حداثة.

ولكن لا يبدو أن مثل هذه الفرضية تضع في حسابها التطور الحقيقي للعرف النحوي العربي حول هذه النقطة. فمع احتمال أن نستبق قليلاً ما سيلي يجب أن نشير في الواقع إلى أنه إن كان مفهوم الدلالة بالوساطة يبدو جيداً وبشكل غير قابل للنقاش لدى النحاة العرب، فإن ذلك لم يحصل إلا بدءاً من منتصف القرن الرابع، وعلى الأرجح بتأثير العرف المنطقي النحوي اليوناني، وبدءاً من هذه الحقبة، في الواقع، عُرّف الحرف غالباً بأنه "ما يأتي لمعنى" (أو يحيل إلى معنى) لا بذاته بل بشيء آخر" (راجع بين آخرين: الرّجّاجي في كتاب الإيضاح، ص 54).

إن الدلالة بالوساطة (Consignification) بالمعنى الدقيق، تتدخل في نوع من تفسير إضافي لصيغة سيبويه، وتهدف بشكل خفيٍّ بمقدار أو بأخر إلى تصحيح مداها. وهكذا إذاً يبدو أن كل شيء حصل كما لو أن العرف النحوي العربي من جهة، والعرف اليوناني من جهة أخرى تبعاً خطين تطوريّين متماثلين كلياً، منطلقين من وجهات نظر متعارضة ("الكلمة تجيء لمعنى"

بحسب سيبويه، و"الأصوات غير الدالة" لأرسطو ليتوصّلا إلى نتيجة واحدة.¹ لنلاحظ مع ذلك أنه إن بدا مفهوم الحرف الذي هو: "دالٌّ بشيء آخر سواه" متمتعاً برأي الأغلبية في العرف العربي "الكلاسيكي" (فيما بعد القرن الرابع)، فإن مواقف أخرى مثبتة أيضاً؛ ومن أجل تفحص هذا النقاش الهام، الذي لا أريد أن أتعرض له، سنرجع إلى كولوغلي Kouloughli 1978 الذي يعالج المسألة.

والنقطة الثانية التي يبتعد فيها سيبويه عن العرف اليوناني تتعلق بالفعل، وهو الوحيد من أنواع الكلم الثلاثة،² الذي يُخصص له تفصيل نظري واسع إلى حد ما، سأعطي منه هنا القسم المركزي، في ترجمة أردتها حرفية إلى أقصى حد ممكن:

"أما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى ولما يكون ولم يقع وما هو كائن ولم ينقطع". (2, I).

ويحدد سيبويه في مكان آخر أن: "الأحداث هي مثل الضرب والحمد والقتل" (المرجع نفسه)، أي ما يُسمّى في الاصطلاح العربي التقليدي، المصادر، إننا نجد الوهلة الأولى مكوّني تعريف الفعل الذي قدمه العرف اليوناني والذي سيستعمله العرف النحوي العربي وهما: العملية (أو، هنا، الحدث) والزمان. يضاف إلى ذلك أن مفردات سيبويه تبدو هنا صيغة أكثر منها زمنية: إن موضوع الخلاف هو ذلك الجزء من المدة المتعلق بتزمين (instanciation) الحدث المقصود. وهنا أيضاً يوجد اختلاف مع تصور النحويين المتأخرين الذين يقتصر على الحديث عن "الماضي والحاضر والمستقبل". غير أننا إن قرأنا بإمعان هذا المقطع بدا لنا أن موقف سيبويه هو في الواقع أكثر تعقيداً ورهافةً، وأنه لم يضع العنصرين المكونين للفعل تماماً على الصعيد

¹ لقد قدم ترويو ترجمة كاملة لهذا الفصل، 1973.

² الكلّم، وهو جمع كلمة، هو المصطلح الأكثر انتشاراً في العرف النحوي العربي للإشارة إلى أقسام الكلام؛ ونجد كذلك، بدءاً من القرن الرابع، ولكن بشكل خفي أكثر عبارة "أقسام الكلام" التي تبدو مأخوذة عن اليونانية. ولنشير إلى أن الكلام والكلمة يُشيران إلى مفهوم discours.

ذاته.

فالواقع أن "الحدث"، العملية، التي تدخل في "بناء" الفعل ليست هي نفسها فعلاً، بل اسماً هو المصدر: إن الفعل، إزاء هذا المصدر، في علاقة اشتقاق صرفي دون شك: وهكذا، فإنَّ ضَرِبْتُ أو تضرب يشقان، في نهاية الأمر، من ا لاسم ضَرَب¹. إن هذا المصدر يبقى، بحكم طبيعته الاسمية، ذا معنى غريب عن الفعل بحصر المعنى، الذي يتكون من أمثلة، من أبنية صرفية، خُصَّص كل منها لتحديد العلاقة بين الوضع الذي أنشأه تزمين العملية ووضع التكلم. والفعل بسبب ذلك ليس واحداً مثل الاسم بل متعدد: إن مجموعة أمثلة لا يمكن أن يُعتبر أي منها ضمن هذا الإطار على الأقل، الأول بالنسبة إلى ما عداه، ولا، بالأحرى، ممثلاً بذاته للفئة بكاملها، إنَّ التمثيل الوحيد للفعل الذي يمكن أن يفترض الأول ليس فعلاً بالتأكيد، بل اسم هو المصدر.

ويبدو لي أن في الأمر ما هو أكثر من ذلك أو على كل حال هناك شيء آخر غير مجرد صيغة (فعل = عملية + زمن) التي يمكن انتظارها من نحوي معتبر تابعاً للعرف اليوناني؛ هناك خاصة تناول خاص مرهف، على الرغم من أنه حدسي ومعبر عنه بشكل منظم قليلاً، لعدم التجانس العميق للاسم والفعل، كما يشهد بذلك مثلاً هذا المقطع الذي يظهر بعد عدة صفحات:

والواقع أن الأماكن لم يُبَيَّن لها فعل، وليست الأماكن بمصادر أخذت منها الأمثلة، فالأماكن إلى الأناسي ونحوهم أقرب: ألا ترى أنهم يختصّونها بأسماء "كزید" و "عمرو" في قولهم "مكة" و "عمان" ونحوهما. ويكون فيها خَلْق ولا تكون لكل مكان ولا فيه كالجبل والوادي والبحر، والدهر ليس كذلك، والأماكن لها جثة، وإنما الدهر مُضَيّ الليل والنهار، فهو إلى الفعل أقرب (I, 15).

3. من سيبويه حتى نهاية القرن الثالث الهجري

بعد سيبويه وحتى بداية القرن الرابع الهجري، وفي حدود قدرتنا على الحكم بسبب نقص

¹ إن العرف النحوي العربي لم يتصور أبداً أن الأفعال (ولا أي وحدة معجمية أخرى) يمكن أن تشتق مباشرة من الجذر، الذي هو في نظر النحويين جوهر مجرد حصراً.

النصوص التي ترجع إلى هذه الفترة، يبدو أن التأمل حول أقسام الكلام قلما تقدم. ومع ذلك فلا بد من الإشارة إلى عنصرين جديدين.

أولهما الكلام الذي نُسبَ إلى الأخفش الأوسط تلميذ سيبويه (مات عام 215 هـ أو 221)، وتبعاً له يكون "الاسم هو ما نستطيع أن نقول عنه: نَقَعْنِي أو ضَرَرْنِي".¹ أي أن الاسم على ما يبدو، هو ما يمكننا أن نُسند إليه شيئاً ما. وعلى الرغم من أن المقصود هنا، بالتأكيد، تبسيط ذو هدف تعليمي أكثر مما هو تعريف "علمي" بحسب معايير الزمن، تُسجل هذه الصيغة أول ظهور لاعتبارات تتعلق بمفهوم الإسناد (الإخبار) في التأمل حول أقسام الكلام. غير أنه يبقى صعباً أن نقرر إذا كان الأمر يتعلق هنا بمحاولة فردية لا تالي لها، بل بمجرد ارتجال لا أهمية نظرية له، إن كانت صيغة الإخبار تمثل، بالعكس، وتحت صيغة ساذجة جداً أيضاً، المرحلة الأولى لتطور كان سيأخذ شكله الكلاسيكي في القرن الرابع، ولأسباب ذاتها، يبدو كذلك صعباً أن نحدد ذلك الجزء من تأثير ممكن في هذه النقطة من العرف الأرسطوطاليسي.

"والتجديد" الثاني لهذه الحقبة، الذي يحمل هذه المرة أثراً أكيداً لدخول الأرسطوطاليسية في الأوساط النحوية على الأقل نحو نهاية القرن الثالث الهجري، يكمن في تأكيد الطابع الشامل للتقسيم الثلاثي: الاسم والفعل والحرف. ويظهر هذا التقسيم المرة الأولى في حدود علمية في كتاب الْمُقْتَضَب للمبرد (مات عام 285). في شكل مقتضب: "الكلام كله اسم وفعل وحرف، وسواءً أكان عربياً أم غير عربي، لا يخرج عن هذا التقسيم" (3, I). وسواء أكان المقصود هنا عنصراً جديداً يبدو الواضح إذا قارنا هذا التأكيد بعنوان الفصل الذي يحل فيه سيبويه أقسام الكلام: "هذا هو فصل معرفة ماهية أنواع الكلمات من العربية". وإذا لم يسمح تعبير سيبويه باستنتاج أن مصداقية التقسيم، في رأيه، إلى اسم وفعل وحرف يقتصر على العربية وحدها دون أي لغة أخرى (من المرجح جداً ألا يكون طرح السؤال إطلاقاً)، فإن إضافة المبرد الظاهرية لا تعدل مع ذلك اتجاه تفكيره.

¹ انظر الزجاجي: كتاب الايضاح. ص49.

وهذا الانعطاف جدير بأن يذكر، لأن العرفَ النحوي العربي بمجمله، المهتمّ كلياً بأن يدرس، بالطريقة الأكثر دقة وتفصيلاً، الخصائص النوعية للغة العربية الراسخة عموماً بشكل غير قياسي والمتفوّقة على جميع اللغات الأخرى،¹ لم يُعرَ إلا اهتماماً هامشياً "للكليات" اللغوية: إن الاتجاه العام في الغالب، أمام سِمة أو عمل أياً كان، أن تُرى فيهما صلة خاصة باللغة العربية، حتى إثبات العكس.

ومن المحتمل جداً، في مثل هذه الظروف، أنه ينبغي أن نرى هنا ردة فعل للمبرّد (أو لواحد من أسلافه ربما كان (المبرّد) استعار منه هذه الملاحظة) على فكرة من الفكرِ الأرسطوطاليسي، بدأت في هذه النهاية للقرن الثالث، بالانتشار خارج الحلقات الضيقة للفلاسفة المنتسبين صراحة إلى الإرث اليوناني؛ وهؤلاء الفلاسفة كانوا يستعملون عادة في المنطق نظام تصنيف لأقسام الكلام مشابه لنظام النحاة، وإن كان ذلك لكلمات مختلفة مأخوذة من اللغة اليونانية. إن الالتقاء حول هذه النقطة للعُرفين (العربي واليوناني) اللذين كانا يعتبران بالطبع مستقلين كلياً أحدهما عن الآخر، لا يمكنه إلا أن يرسخ لدى هؤلاء وهؤلاء، أن فكرة التقسيم الثلاثي إلى اسم وفعل وحرف كان واقعة عامة.

4. كتاب الأصول لابن السراج

مع جيل تلاميذ المبرد يوضع الإطار النظري الكلاسيكي الذي سينتمي إليه مذ ذاك مجمل النتاج الفكري للعرف النحوي العربي، وفي الوقت نفسه يستمر الجدل . الشاق، العدوانى غالباً والمشبع دائماً بخلفيات فكرية لهؤلاء وهؤلاء، ولكنه حقيقي . بين النحو والفلسفة التي شهدت، في

¹ يعين ابن السراج في الصفحة الأولى من كتاب الأصول هدف النحو بأنه تعليم التكلم الصحيح بالعربية، من جهة، وإبراز تفوق هذه اللغة على سواها من اللغات من جهة ثانية (راجع: غيوم 1986، I، 94 . 131). وهذه الفكرة مركزية لدى غالبية نحاة القرن الرابع الهجري (ولاسيما ابن جني في كتاب الخصائص، ولكنها أقل ظهوراً لدى النحاة الذين جاؤوا بعدهم.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

هذا القرن الرابع الهجري، أوج انتشارها فيما نسميه اليوم الأوساط الفكرية، إلى الحد الذين تستطيع معه أن تزعم صراحة أنها تحتل مكانه مُهيمنة. وهذا الجدل سيستجر، فيما يخص النحو، إعادة بناء شاملة للاختصاص، ومن هنا سيولد الإطار النظري التقليدي الذي سينضوي تحته العُرف اللاحق بأكمله،

إن واحدة من الصفات الأكثر مباشرة لهذه القطيعة، التي يؤلف كتاب الأصول لابن السراج (مات عام 316 هـ) نصها التأسيسي، تكمن في بناء أسلوب عرض منتظم تندمج فيه جميع المسائل التي تؤلف المادة النحوية التقليدية. وهذا الأسلوب، الذي سيستمر عليه معظم الكتب اللاحقة يستند بشكل حاسم إلى نظام أقسام الكلام، الذي يؤلف القسم الأول الأعظم، لأن القسم الثاني يكونه . على الأقل فيما يخص الاسم والفعل . نظام الإعراب، باعتبار أن مختلف حالات تعيين كل حالة من حالات الإعراب مدروسة على التوالي.

وفي هذا التنظيم الجديد للنحو، وُجِدَت أقسام الكلام إذاً موضوعة في الدرجة الأولى: وربما كانت لهذا السبب موضوعاً لجهد متناهم من أجل إعطائها تعريفات واضحة ومحددة، وكذلك من أجل أن يؤسس عقلياً النظام الذي تؤلفه، بإثبات أنها لم تكن نتاج قرار اعتباطي، ولكنها تتفق جيداً مع طبيعة اللغة البشرية.

إن الفصل المخصص لأقسام الكلام.¹ من كتاب الأصول يسجل عدداً من التجديدات ذات الأهمية التاريخية. فهو من جهة يتمسك، بخصوص كل فئة معينة، بأن يقدم إلى جانب التعريف المحدد الذي يهدف إلى التعبير عن جوهر الشيء، عدداً من الخصائص التي تميزه، وهي مقدمة بصفتها جملة من المعايير اللاشكالية (informels) التي تهدف إلى وضع النظام في متناول المتعلم. وهكذا يمتاز الاسم، تبعاً لابن السراج بأنه يمكن أن يسبق بأداة التعريف أو بحرف جرّ، ومع ذلك فلا يتعلق الأمر هنا إلا بتقريب، لأن أداة التعريف لا ميز في الواقع إلا العناصر

¹ قام بالترجمة الكاملة لهذا الفصل: تروبو Troupeay.

الأكثر تمثيلاً للغة، إنها لا تميز الفئة كاملة (فأسماء الإشارة والضمائر مثلاً لا تأخذ أداة تعريف). إن القطيعة التي يقيمها ابن السراج هنا بين كلام نظري، علمي، يتحدث عن الأشياء كما هي في الواقع، وكلام يستند إلى التقريب لهدف تعليمي، ستتعمّم فيما بعد؛ فالإ جانب النقاشات المعقدة والتميّزة بنوع من الشكلائية الأكاديمية ستتطور، في كتب أكثر تبسيطاً، قوائم بالصفات الخاصة بكل فئة، تذكر بمعايير شكلية من نوع صرفي أو صرفي نحوي بشكل أساسي. والنقطة الثانية التي تستحق أن تذكر هي الظهور غير القابل للنقاش هذه المرة لتعريف للفعل من نوع أرسطوطاليسي: "ما يدلّ على معنى وزمن، وهذا الزمن إما حاضر وإما ماض وإما مستقبل" (I , 37). أما تعريف الحرف فعلى العكس لا يحيل إلى فكرة الدلالة بالوساطة حتى الآن ("ما يأتي لمعنى، لا بذاته بل بشيء آخر"): فهذا المفهوم لا يظهر المرة الأولى في حدّ علمي على الأقل، إلا في كتاب متأخر قليلاً هو كتاب الإيضاح للزجاجي (مات عام 340).

ولكن الجانب الأهم لهذا الفصل يتعلق بالقسم الهام الذي تؤدّي فيه الاعتبارات من النوع المنطقي الدلالي ذات الصلة بفكرة الإسناد (الإخبار)¹؛ إن كتاب الأصول، في حدّ علمي، هو الكتاب النحوي الأول الذي يرجع بصراحة إلى مفهوم موحد لعلاقة الإسناد.² وهذه العلاقة لا تتدخل مع ذلك مباشرة في تعريف أقسام الكلام، إلا في حالة الحرف؛ ولكنها تظهر في تفصيل أدمج في بداية المقطع المتعلق بالمعايير اللاشكالية التي تميز الاسم:

إن الاسم وحده يتصف بأشياء مختلفة تسمح بتعرّفه. وهكذا يقال: الاسم هو ما نستطيع أن نخبر عنه شيئاً كما في عمرو منطلق (عمرو هو قِسْم) أو قام بكرّ. الفعل مسند، ولكننا لا نستطيع أن نخبر عنه شيئاً؛ وتقول كذلك: أخوك يقوم و قام أخوك: فالفعل حديث يتناول الأخ

¹ هذه الكلمة يستعملها عامة نحاة العصر؛ وبدءاً من كتاب المفصل للزمخشري (مات عام 467) يميل مصطلح الإسناد (الذي استعمله سيبويه ولكن في معنى آخر) إلى أن يحل محله.

² إن مفهوم الإسناد الذي استعمله سيبويه إفرادياً يتعلق خاصة بالإسناد الاسمي (راجع الكتاب I , 2 وتروبو، 1973). والأمر كذلك من جهة ثانية لدى المبرّد (راجع المقتضب، IY، ص 126).

[..] والحرف أخيراً لا يمكنه أن يكون مسنداً إليه و لا مسنداً [...] (I , 37).

إن هذه الاعتبارات تتيح لنا أن نحلل بطريقة موحدة دقيقة نظام أقسام الكلام؛ ويبدو من المرجح أنها تصدر بشكل مباشر بمقدار أو بآخر عن الفلسفة التي كان مفهوم الإنسان ضرورياً لها ضمن إطار تحليل القضايا ولكن ما يبدو مثيراً للفضول، على العكس، هو أن ابن السراج، المولع مع ذلك بالتعميمات والدقة النظرية، يعطي مكاناً هو بالجملة ثانوي، لهذا الاتجاه المنطقي الدلالي، ويبدو أنه يتجنب أن يذكره على مستوى التعريفات بحصر المعنى ما عدا حالة الحرف، هذا القريب الفقير للنظام.

وربما كان سبب هذا التردد هو البحث في الصعوبات التي يثيرها واقع أن اللغة العربية، على خلاف اليونانية واللغات الهندية الأوروبية عامة، تعرف نوعين من الإسناد منفصلين تماماً، ويميزهما العرف النحوي العربي بوضوح وهما: الإسناد الاسمي (أو الموضوعاتي) الذي يكون فيه المسند إليه،¹ الموجود في صدر الجملة، والمسند (في الحالة الأكثر بساطة) كلاهما اسمياً؛ والإسناد الفعلي الذي يكون فيه صدر الجملة فعلاً، محلاً بصفته مسنداً يليه اسم، محل بصفته مسنداً إليه (في الحالة الأكثر بساطة، هو الفاعل). إن من الصعب جداً إذاً بالنسبة إلى اللغة العربية أن تحتفظ بالتشابه الضمني بمقدار أو بآخر في نص الـ Peri hemeneias الذي، تبعاً له، يميل الاسم قاعدياً لأن يكون مسنداً إليه، ويميل الفعل إلى أن يكون مسنداً؛ زد على ذلك أن العلاقة الإسنادية الاسمية في رأي الجمهور (حيث يكون المسند في الحالة الأبسط، اسماً) "أولية" بالقياس إلى العلاقة الفعلية؛² إن ابن السراج الذي يعتمد هذا الرأي يلاحظ، بين أمور أخرى، أن

¹ حول هذه المسألة المعقدة جداً، راجع محاولة تحليل في: غيوم 1986، I، 59 . 84.

² يجب تفضيل هذا المصطلح من أجل ترجمة: مُخبر عنه أو مسند إليه، إلى فاعل الذي سنحتفظ به من أجل: فاعل عندما يكون فاعلاً لإسناد فعلي. فمن الضروري في الواقع أن نميز مع أكبر قدر من الدقة مستويي التحليل المتعارفين في العرف النحوي العربي، وهما المستوى المنطقي الدلالي، المحدد بعلاقات الإسناد، والمستوى الصرفي النحوي المحدد بعلاقات التّعديّة؛ وكل غموض في هذا المجال قد يستجر التباسات صعبة الحل.

الإسناد الاسمي، الذي يسبق فيه المسندُ إليه المسندُ يمثل وحده، ترتيباً "طبيعياً" غير معلن، في حين أنه، في الإسناد الفعلي يرجح الترتيب المعاكس: المسند (الفعل) يسبق فيه المسند إليه (الفاعل).

5. كتاب الإيضاح للزجاجي

يبدو من جانب آخر أن المشكلة التي أثّرت سابقاً تولّف صلب مقطع من كتاب الإيضاح للزجاجي، الذي مر ذكره، وهو، مع ذلك، مقطع غامض إلى حدّ ما، ومثقل، على ما يبدو، بمعرفة فلسفية دينية موجهة بشكل غير كافٍ:

إننا نعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق اللغة لينتج لمخلوقاته أن يعبروا عن الإدراكات الخفية في دخیلتهم [...] ولما كان ذلك مفهوماً بجلاء، ودون اعتراض ممكن، اتضح أن المخاطب والمخاطب، المخبر عنه والمخبر به هما معاً هيات وطوارئ استبدلت؛ في التعبير [اللغوي] بأسمائها [...]: فالخبر إذن متميز عن المخبر وعن المُخبر عنه اللذين يدخلان كلاهما في فئة الاسم، في حين أن الخبر هو الفعل. [...] يضاف إلى ذلك أن من الضروري أن يوجد رباط بين الاثنين [الفعل والاسم]: هو الحرف (ص42).

إن الزجاجي يبدو إذاً مضطراً إلى أن يميز بطريقة، والحق يقال، شكلية إلى حدّ ما ولفظية بين خبرٍ هو دائماً فعل، ومخبرٍ وهو إحدى الوظيفتين الممكنتين للاسم، باعتبار أن الأخرى هي وظيفة المُخبر عنه. أما مفهوم الحرف بصفته "رباطاً بين الفعل والاسم" فيبدو موجهاً خاصة بالحاجات إلى تشابه بلاغي صرف، ويتوافق توافقاً سيئاً مع معطيات الواقع.¹

والطابع المصطنع جداً للحل الذي يقترحه الزجاجي يفسّر دون شك واقع أنه، في حدّ علمي،

¹ ولهذا السبب، على ما يبدو، لم يذكر ابن السراج، في التفصيل الذي يخصه للخروف (المرجع نفسه ص 42)، فكرة "الرباط" إلا ضمن وضع محدد بنيوياً (بعض الحروف لها هذه الوظيفة، وبعضها ليس لها) ولا يرجع إليها في تعريف الفئة.

لم يُتَّوَلَّ من أي شخص آخر .

أما الحل الذي يكمن في القول عن أقسام الكلام الثلاثة: إن أحدها (الاسم) يمكن أن يكون إما مخبراً عنه وإما خبراً، وإن الآخر (الفعل) يكون خبراً فقط، وإن الثالث (الحرف) لا يكون لا مخبراً عنه ولا خبراً، فيبدو أنه كان مرفوضاً عموماً لأسباب تتعلق بالمنطق الشكلي؛ إنه يفترض في الواقع إمكانية رابعة غير محققة، وهي أن فئة (أخرى) كانت فقط مخبراً عنه لا خبراً. ومثل هذا الخلل المنطقي كان لا مفر من حصوله في الواقع ابتداءً من اللحظة التي لم تكن فيها كلمة "أو" في عبارة مثل "أي قسم من الكلام هو مخبر عنه أو مخبر" حرف عطف تخييري disjonetive، وهو ما كانت تفرضه طبيعة الوقائع الخبرية Empiriques. وعلى كل حال، فإن تحليلاً بهذه الكلمات يقترحه ابن مُعْطِي (مات عام 628) استدعى الرد الساحق للعالم ابن هشام (مات عام 671): "هذا أفسد ما قيل عن المسألة"¹. وهو ذاته يقترح نظاماً وسطاً يقوم أولاً على التمييز بين العناصر التي يمكنها التدخل في وضع الخبر (الاسم والفعل) والعناصر التي لا يمكنها ذلك (الحرف)، ثم، في مرحلة ثانية، يميز بين العناصر المقترنة بواحد من الأزمنة الثلاثة، أي الفعل والعناصر غير المقترنة، أي الاسم. وبهذا الشكل تصان المصادقية الشكلية للنظام، ولكن على حساب تجانس معايير التمييز التي يذكرها.

وهذه المناقشات التي ترمي إلى تأسيس نظام أقسام الكلام تبقى مع ذلك متميزة، على نطاق واسع، عن تلك التي تخص تعريفات كل من هذه الأقسام الثلاثة متتولاً على انفراد. وقد عرفنا هذه المناقشات الأخيرة أساساً عبر مقطع طويل من كتاب الإيضاح للزجاجي، وإن بدا هذا المقطع، قبل كل شيء، صورة لوجهات نظر شخصية فإنه مع ذلك يمثل إلى حدٍّ ما المشكلات التي كان يثيرها النحاة آنذاك، والطريقة التي كانوا يلجؤون إليها لحلها. والواقع أن هذه المشكلات تتعلق خاصة بتعريف الاسم، وربما رجع ذلك إلى أن الكتاب لسببويه الذي كان يعد آنذاك السلطة الأساسية في النحو، لا يقدم أي تعريف لهذه الفئة، أما عن الفعل والحرف فإن التفاصيل

¹ راجع السيوطي، مرجع سابق II، 3.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

القصيرة نسبياً التي يقفها الزجاجي لهما يدفع، بالعكس، إلى القول بوجود إجماع واسع حول المسألة: الفعل هو "ما يشير إلى حدث وزمن ماضٍ أو مستقبل".¹ والحرف هو "ما يدل على معنى في شيء آخر سواه".

وهذان التعريفان اللذان يبين الزجاجي أنهما يتفقان مع أوضاع النحويين، يستندان، كما نرى، إلى معايير دلالية: إن قسماً من الكلام يتصف بما يدل عليه، أما الاسم فإن الزجاجي، على العكس، يغير وجهة نظره بخصوصه جذرياً ويقترح مباشرة تعريفاً من نوع نحوي: "الاسم، في كلام العرب، هو ما كان فاعلاً أو مفعولاً".² أو واقعاً في حيز الفاعل والمفعول به" (ص48). وهذا التعريف هو، في رأيه، الوحيد الذي يتفق مع "مقاييس النحو وأوضاعه"، وهو الوحيد كذلك الذي يشمل الفئة كلياً.

ولكي نفهم جيداً الاعتبارات التي تقود المؤلف لأن يتخذ هذا الموقف من الضروري أن ننتبه استدلاله عن قرب، فبعد أن يضع هذا التعريف، يتناول تعريف من يسميهم المناطق، أي الفلاسفة، التعريف الذي يتطابق تقريباً مع تعريف الـ Peri hermeneias: "الاسم صوت اتفاقي يدل بالتطابق على معنى لا يرتبط بالزمن". إذاً، إذا كان الزجاجي يسلّم بأن مثل هذا التعريف مطابق للحاجات ولاستعمال المناطق فإنه يرفض كلياً فكرة أنه، أي التعريف، يستطيع التوافق مع النحاة، موجهاً اللوم بذلك لمن تبوّه منهم. وهذا الرفض يبدو في جانب منه ذا طبيعة ايديولوجية؛ إن الأمر يتعلق بتبيان أن النحو يكتفي بنفسه، وليس بحاجة لأن يستعير أي شيء من المنطق،

¹ يرفض الزجاجي لأسباب أونطولوجية (خاصة بعلم الكائن) أن يقر بوجود زمن حاضر (راجع الزجاجي: مرجع سابق، ص 86 ..).

² يجب أن يفهم جيداً هنا أن كلمات فاعل ومفعول تعني الفئات النحوية اللفظية لـ "Sujet" "Complement". أما ترجمتها بـ "Something active or passive" كما فعل فرستينغ 1977، 59 أو كذلك بـ "agentou" "objet d'action" كما فعل جمال العمراني، 1983، 113 فلن تؤدي إلا إلى زيادة التباس المسألة أو إلى جعلها غير مفهومة إطلاقاً، وذلك بإضافة الفئات الاونطولوجية (agent et patient)، حيث يريد الزجاجي، بكل وضوح، أن يرسى تعريف الفعل على "قواعد النحاة وأوضاعهم".

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

هذا الاختصاص "الغريب" ، "الدخيل" ، كما أطلق آنذاك على مجمل العلوم ذات الصلة بالإرث اليوناني.

وهذا يقود الزجاجي إلى أن يتخذ موقفاً "متطرفاً" حول الاستقلال الدلالي للعناصر اللغوية: فبوضعه في مواجهة التعريف الأرسطوطاليسي فكرة أنّ معظم الحروف مثل "الواو" و "الكن" تدل هي الأخرى على معنى غير مرتبط بزمن ، وليست مع ذلك أسماء، يتصور اعتراضاً ممكناً هو الموقف الكلاسيكي الذي تدل الأسماء تبعاً له، مباشرة على مُسمّأها، في حين أن الحروف "لا تدل على شيء" بذاتها، ولكنه يؤكد أن هذا الاعتراض لا يصمد، لأن الأسماء ذاتها، وقد أخذت معزولة، لا تعني شيئاً، ولا تُولّف إلا سلسلة أصوات خالية من المعنى (لَغَوٌ وَهَذَرٌ) مادامت لا ترتبط بمكونات أخرى ضمن إطار جملة كاملة. وهذا الموقف الذي يبدو ضعيف الارتباط بفكرة أن الدلالة بالوساطة تعرّف بدقة الحرف، لا تخلو من فائدة؛ غير أنها تبقى معزولة في الكتاب الذي تناقضها ضمناً عدّة مقاطع منه، وهذا ما يدفع إلى القول بأنها تملك، هنا على وجه الخصوص، قيمة جدالية.

ولكنها، في السياق المحدد الذي تظهر فيه، تستجر نتيجة هامة، وهي أنها تغلق الباب أمام كل حل دلالي للمشكلة؛ وهكذا فالزجاجي مضطر إلى أن يرفض، لأسباب أونطولوجية، تعريف ابن السراج الغامض، بحق، إلى حدّ ما: "الاسم هو ما يدل على معنى بسيط، وهذا المعنى يمكن أن يكون شخصاً أو اسماً" وبناء على هذا . تبعاً للزجاجي . تكون الحروف جميعها أسماء".

لقد رأينا آنفاً أن الزجاجي يرفض كذلك التعريف المنطقي الدلالي الذي تتضمنه صيغة الأخفش؛ إن مثل هذا التعريف يستبعد، في رأيه، عدداً من العناصر التي تُولّف جزءاً من الفنة، ولاسيما اسم الاستفهام "كيف" وعناصر أخرى، ولُنْشِرَ إلى أنّ إلحاح الزجاجي على هذه المسألة يبدو، هنا أيضاً، مرتبطاً بالجدل مع المناطق: إن "كيف" التي تنطبق في اللغة اليونانية على "Po" هي الكلمة التي يستعملها الفلاسفة ليدلوا على فئة "الكيف". ويبدو أن الفلاسفة صنفوها بين

الحروف.¹

ومهما كان الأمر فإن هذا الاستثناء الجديد يقود الزجاجي إلى أن يحدد موقعه، في النهاية، على أرض يكون فيها وثاقاً من أنّ المناطق لا يتبعونه، وهي النظرية النحوية. فقوله: إن الاسم هو ما يمكنه أن يكون فاعلاً أو مفعولاً لفعل، أو واقعاً في حيز فاعل أو مفعول، يصيب به في رمية واحدة هدفين، فهو، من جهة، يتخلص من الاعتراض المتعلق بوضع "كيف": فيقول إن هذا الاسم هو استفهام يتناول الحال، و "الحال" كلمة تدل على جزء محدد determinant يعمل فيه الفعل وتشبّهه النظرية النحوية التقليدية بمفعول.² وهو، من جهة ثانية، يحصر كلياً تعريف الاسم ضمن الإطار النظري الخاص بالنحو، مؤكداً بذلك استقلال النحو ومنكراً على المنطق وعلى الفلسفة، كل حق في النظر إلى بناء مفاهيمه الأساسية وعملها.

ومهما كانت محاولة الزجاجي تأسيس نظام أقسام الكلام بكلمات نحوية حصراً، هامةً على الرغم من طابعها الجزئي، فإنها بقيت دون مستقبل: فلا يبدو، من جانب آخر، أنّ نحاة آخرين أتبعوها، حتى في عصرها. وبدءاً من القرن الرابع ينتهي التعريف الأرسطوطاليسي بفرض نفسه في الكتب الكبرى ذات الأهداف النظرية (الكتب التي يغلب عليها الطابع التعليمي تقتصر على تعداد عدد من الصفات المميزة لكل فئة، أو تعداد عناصرها الأكثر تمثيلاً). وفي هذه الحقبة في الواقع، لم يعد يمثل الفلسفة، التي هجرت منذ زمن طويل إرادتها التسلطية على مستوى الثقافة العامة، إلا نواذٍ صغيرة مفصولة عن باقي المجتمع و . عملياً . تعليم باطني وشبه سري، في الوقت الذي اندمج جزء هام من عقيدتها، ولاسيما المنطق، في الأفق الثقافي المشترك للعلوم الإسلامية". فلم يعد تبيي التعريف الأرسطوطاليسي إذاً، كما في القرن الرابع، تأكيداً صريحاً لولائه

¹ وهذا، على الأقل، الموقف الذي يبدو تضمنته في دراسة الفارابي، مثلاً، للفئات العشر الأرسطوطاليسية، في كتاب عنوانه: كتاب الحروف، غير أنني أعترف أنني لا أملك تصورات واضحة حول مسألة أن تكون الحروف . (جمع حرف)، في هذا السياق حاملة لمعنى حرف (أداة: Particule).

² حول تشبيه الحال بالمفعول ، راجع مثلاً: ابن السراج: مرجع سابق، I ، 213.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

لنظام شامل من المراجع الثقافية، متميّز عن ذاك الذي كونته العلوم الفلسفية الدينية (للبلد الأصلي: autochtone).

لقد كان الأمر ببساطة يعني تعلقاً بالاصطلاحات المعترف بها للغة ببنية metalangage مشتركة ساهم فيها النحو إلى جانب علوم أخرى.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

المصادر

- . الفارابي، أبو نصر محمد: كتاب الحروف، طبعة محسن مهدي. بيروت، دون تاريخ.
- . ابن هشام، جمال الدين . الأتصاري: مغني اللبيب، طبعة مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، ومراجعة سعيد الأفغاني، الطبعة الخامسة، بيروت 1979.
- . ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، طبعة م .ع. النجار، الطبعة الثانية بيروت، دون تاريخ.
- . ابن السراج، أبو بكر محمد: كتاب الأصول في النحو. طبعة أ. فتلي، بيروت 1985.
- . ابن يعيش، يعيش بن علي: شرح المفصل، بيروت . القاهرة، دون تاريخ.
- . المبرّد، أبو العباس محمد: المقتضب، طبعة م.أ. عزيمة، بيروت، دون تاريخ.
- . سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، طبعة بولاق، طبعة معادة بيروت، دون تاريخ.
- . السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: الأشباه والنظائر في النحو، الطبعة الثالثة، بيروت، 1984.
- . الزجّاجي، أبو القاسم محمود، المفصل، انظر ابن يعيش.

مراجع خاصة

- Guillaume, J.P (1986): Recheches sur la Tradition grammaticale arabe, These de doctorat, universite de Paris-3
- Guillaume, J.P, a paraitre: "lire les grammaires aabes", Langues de l'oriecnt ancien, philologie et linguistiques n°3.
- Merx, A. (1889): Historia artis grammaticae apud Syros, Lipsiae.
- Merx, A. (1891): "Lorigine de lagrammaire arobe", Bulletin de l institut egyptien.

كيف يبطل فيروس السيدا (الايذز)

المصابين التي نصبت له *

سنتوب ساراغوستي

ترجمة الدكتورة رويدة أبو سمرة

كلية الطب بجامعة دمشق

ينجو فيروس السيدا من دفاعات الجملّة المناعية ويقاوم الأدوية وذلك بسبب سرعة تكاثره وما ينجم عنها من تحولات غير اعتيادية. وقد اقتنع الباحثون بأن فهم هذه الظواهر وتحليلها يمكن أن يفتح الطريق لوسائل أخرى من الصراع.

إن الجملّة المناعية عند الأفراد المصابين بعيدة عن كونها مجردة من الأسلحة أو الوسائل لمقاومة فيروس السيدا (VIH). فهي منذ بداية الإصابة الخمجية تقوم بإعداد الأعداد الكبيرة من "حماة الجسد" ذات التأثير الحقيقي المضاد للجراثيم، لكن آليات تأثير هذه المكونات غير محدّدة بشكل واضح. وهي على الخصوص للمفاويات T السامة للخلايا أو CTL، فتأثيرها المتمثل بشكل أساسي بتخريب الخلايا المخموجة بالفيروس، يضاف إلى تأثير الضد المعدل والموجه ضد البروتينات المكونة لغلاف الفيروس.

ومع هذا، يتمكن الفيروس من النجاة من الأضداد وCTL، ويتوالد (يتكاثر ويتناسل) بوتيرة

* نشرت هذه المقالة في مجلة La Recherche الفرنسية . العدد 275 . نيسان / ابريل 1995 . Vol 26 . ص 464 . 465.

عالية جداً مؤدياً في النهاية إلى الإصابة بالسيدا. وبالطريقة السابقة نفسها يؤدي الاستعمال المديد للأدوية المضادة للفيروسات (AZT, ddI, إلخ) لدى الأفراد المصابين بالسيدا إلى تطور الفيروس المقاوم للعوامل الدوائية. ففي كلتا الحالتين، يعود السبب الأول في مقدرة الـ VIH على التكيف والتحولات غير الاعتيادية إلى التكرار الكبير لتغيرات مجينها وسرعة تنسخها. وتتسأ هذه الظاهرة من طفرات، وفي بعض الأحيان نتيجة عملية انتشاب أي اختلاط بين المجينات الفيروسية. فضلاً عن أن هذه الظاهرة تحدّد وبشكل كبير الحماية المقدمة من الجملة المناعية والخواص المضادة للفيروسات الدوائية، ولها أيضاً بعض النتائج الهامة في كشف الفيروسات (بل إحاطتها). وتسمح الآن أبحاث السنتين الأخيرتين بوضع الإجابات عن هذه الاسئلة.

لنتفحص في بداية الأمر تخلص الفيروس من تأثير الجملة المناعية وبشكل خاص من CTL. توحي كثير من الدلائل إلى أن هذه الخلايا تؤدي دوراً هاماً في دفاع العضوية ضد الخمج بـ VIH. وعلى الخصوص، ومنذ بداية الخمج، تتواجد طلائع CTL مضادة VIH وبأعداد كبيرة في الدم⁽¹⁾. كما توجد خلال طور لاعرضي يعقب الإصابة بالخمج. الذي يمكن أن يدوم أقل من سنة وقد يستمر أكثر من 12 سنة. أعداد كبيرة من CTL الموجهة ضد أجزاء مختلفة لجميع بروتينات الـ VIH في الدم⁽²⁾. كما توجد أيضاً CTL مضادة لـ VIH لدى أفراد سلبوي المصل؛ وقد تكون هي المسؤولة عن عدم إصابة هؤلاء الأفراد^(3,4).

وتوحي هذه المعطيات وغيرها بأن CTL الموجهة ضد VIH هي المسؤولة عن الحفاظ على كمية ضئيلة من الجزيئات الفيروسية في العضوية وذلك خلال الطور اللاعرضي؛ وتتعلق الزيادة المتدرجة لهذه "الحمولة الفيروسية" بتناقص عدد CTL تلك. ولكن لم تؤكد هذه المعلومات ولم تُصحب بالشرح الواضح، حيث أنها غير مترابطة بشكل بيّن مع غياب اللمفاويات الإضافية CD4، المميزة للسيدا.

بأية وسيلة يحدّ التحول الفيروسي من تأثير الـ CTL؟ تعتمد هذه الوسيلة على ظاهرة التعرف بين المستقبلات التي تملكها اللمفاويات T على سطحها (مستقبلات خلايا T، الـ TCR)

والجزيئات الفيروسية، والمستضدات، بل على التدقيق، بعض الأجزاء من المستضدات هذه والمعروفة باسم الإبيتوب epitopes، والتي تعطي استجابة مناعية. وبالحقيقة تتركب المستضدات الفيروسية بوساطة اللمفاويات المخموجة نفسها (CD4)، ثم تنقوض بوساطة معقدات أنزيمية (بروتيازوم) إلى هضميدات (بيتيدات) مؤلفة من ثماني إلى عشر ثملالات حمض أميني (انظر الشكل). بعدها تنتقل هذه الهضميدات في الخلية المصابة إلى حُجيرة وهي الشبكة الهيولية الباطنة، وذلك عن طريق بروتينات (TAP-1 , TAP- 2)، ثم "تقدم" إلى سطح الخلية بوساطة الجزيئات من النوع I من المعقد الكبير للتوافق النسيجي (CMH)، أي تلك الجملة البروتينية التي تسمح لكل كائن بأن يتعرف الجزيئات "الخاصة" به و"غير الخاصة".

وهكذا يتولى تبادل التأثير بين مستقبلات اللمفاويات T والهضميد الفيروسي عملية تنشيط ال CTL، ويعني ذلك جواباً مناعياً قادراً على إتلاف الخلايا المصابة. لقد افترض العديد من الفرضيات لشرح كيفية إفلات الفيروس من هذا الجواب المناعي⁽⁵⁾. والأكثر شيوعاً من هذه الفرضيات هي مقدرة المجين الخاص بال VIH الكبيرة على إحداث الطفرة (المتعلقة بالمعدل العالي للأخطاء المرتكبة بوساطة أنزيم مفتاحي فيروسي، هو أنزيم التنسخ المقلوب، وبالتكاثر الكبير للفيروس)، والتي تؤدي إلى تغيرات في تركيب مولدات الضد الفيروسية، التي لا تتمكن اللمفاويات T عندها من تعرّفها.

يمكن لثلاثة أنماط من الآليات أن تتدخل في هذه اللعبة⁽⁵⁾ (انظر الشكل) وهي: وقف إعداد الهضميد المستضد في الخلية المصابة؛ منع تثبيت المستضد على جزيئة CMH؛ وعدم تعرّف المعقد مستضد CMH- لدى المستقبلات اللمفاوية T. وقد أوضحت في عام 1994 مجموعتنا في معهد كوشان للوراثة الجزيئية، في باريس، أنه في حالة البروتين الفيروسي (البروتين Nef)، تدخل هذه الأنماط الثلاثة من التبديلات في العملية⁽⁶⁾. وستسمح أعمال أخرى هي قيد الدراسة بتحديد الوقت الذي تظهر فيه CTL، والفيروسات الطافرة التي تقلت من تأثيرها.

إن الظاهرة الثانية البدئية الناجمة عن تباين VIH هي مقدرتها على مقاومة الأدوية المضادة

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

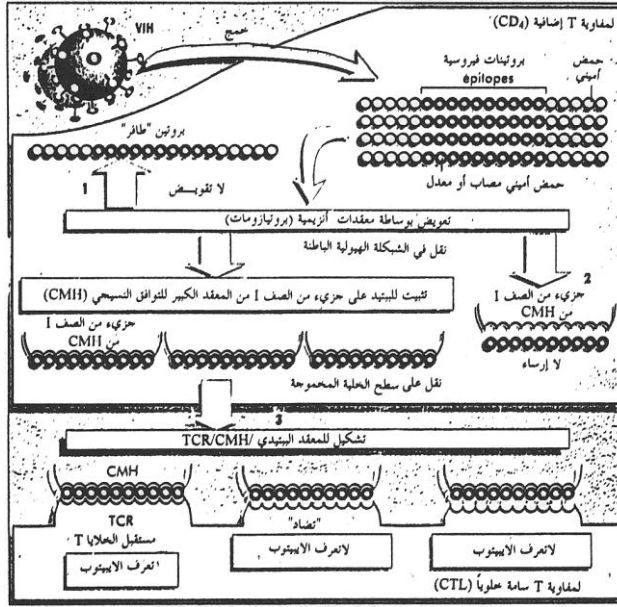
للفيروسات المستعملة حتى وقتنا الحاضر: الـ AZT (أزيدو دي أوكسي تيميدين، أو زيدو فودين)، الـ ddI (ثنائي دي أوكسي اينوزين، أو ثنائي دانوزين)، والـ ddc (ثنائي دي أوكسي سيتيدين). (انظر "أدوية السيدا" في عدد تموز . آب عام 1993 من الـ La Recherche). هذه الأدوية هي مثبطات لأنزيم النسخ المقلوب، الأنزيم الذي يسمح بتحويل المادة الوراثية الفيروسية (لـ ARN أو RNA) إلى مادة (لـ ADN أو DNA) والتي تدخل بجين الخلايا المضيفة. وتشير كثير من المعطيات إلى أن المقاومة الفيروسية تنشأ من جراء طفرات مؤقتة على المورثة الفيروسية POL (للبوليميراز) الضرورية لتركيب أنزيم النسخ المقلوب. إن مقاومة VIH للمعالجة الكيميائية ليست بالغبية بحد ذاتها، حيث عُرفَ عن هذه الفيروسات امتلاكها لمثل هذه الخاصية⁽⁷⁾. وفي كل الحالات، فإن الضغط المستمر والمطبق من قبل الأدوية على الفيروس هو الذي يؤدي إلى الظهور والاصطفاء للفيروس الذي يقاومها وبشكل نوعي.

ومنذ عام 1991، أظهرت الدراسات المستعملة لتقنية التضخيم المورثي (PCR) من قبل مجموعات كثيرة، اشتراك ست طفرات مؤقتة للمورثة pol، وبالنتيجة حدوث ستة تغييرات للحموض الأمينية، وذلك في مقاومة الـ AZT وعند السلالات المدروسة⁽⁸⁾. (انظر "سيداً: تابع تبدلات الفيروس" في عدد كانون الثاني لعام 1992 من مجلة الـ La Recherche). ويتفق عموماً وجود الفيروس المقاوم بشكل عالٍ جداً للجرعات الدوائية (أكثر بمائة مرة من الجرعة الدوائية المضادة للفيروسات الموصوفة بشكل عام) مع طفرات كثيرة للمورثة pol. ويبدو أن المقاومة العالية لـ AZT تضمنت روامز مختلفة للمورثة pol عن تلك التي تتدخل في مقاومة المثبطات الأخرى⁽⁹⁾.

ونظراً لهذه المقاومات، فإن الإدخال المشترك للكثير من المضادات الفيروسية يصبح ضرورة ملحة أكثر فأكثر للإبطاء من التكاثر الفيروسي. ومع ذلك، فإذا كان النقص من الحمولة الفيروسية يظهر في كل الحالات التجريبية حتى الآن (تشارك 2، 3، أو 4 مضادات أنزيم النسخ المقلوب) فإنه يكون مع الأسف قصير الأمد⁽¹⁰⁾.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

إن تحسين معارفنا حول الطفرات الداخلة في مقاومة مثبطات أنزيم النسخ المقلوب، سيؤدي إلى التمييز الأفضل للمراكز الفعالة لهذا الأنزيم، واصطفاء الحموض الأمينية التي تُبطل الطفرة فعاليتها، وأخيراً إنتاج مثبطات ذات قابلية أقل لإحداث مقاومات فيروسية⁽¹¹⁾.



شرح الشكل

يفلت فيروس السيدا من اللمفاويات T للجملة المناعية بفضل التباين في مجينه. ويحدث هذا التباين تغيرات في أجزاء البروتينات الفيروسية (المستضدات) ويؤثر في تعرفهم لللمفاويات.

وتوجد هذه الأجزاء epitopes، في ثلم على سطح الجزيئات من الصف I للمعقد الكبير للتوافق النسيجي (CMH). وتسبب هذه الرابطة تكويناً معقداً من ثلاثة عناصر (جزء من الصف I، epitope، β_2 ميكروغلوبولين) والتي تهاجر من غشاء الخلية المصابة لكي "تقدم" إلى سطحها ثم تتعرفها اللمفاويات. وتتدخل ثلاث آليات في تبدلات هذا التعارف. ويمكن التغيرات في المستضدات أن تخص أولاً مناطق البروتينات الفيروسية، والتي قبل أن تقوِّض في الخلايا المصابة تُنقل إلى المنطقة التي تقوم فيها بدور ال epitope؛ وفي هذه الحالة، سيتأثر تقويض البروتين أو نقل الهضميد نحو السطح الخلوي.

الآلية الثانية: تُعدل الطفرات الوراثية لـ VIH الحموض الأمينية التي تستخدم لإرساء الهضميد الفيروسي على جزيء المعقد الكبير للتوافق النسيجي (CMH)، بحيث لا يحدث الإرساء وبالتالي تقديم ال epitope.

ثالثاً: إذا خصت الطفرات ذلك الجزء من الهضميد الذي يعرفه مستقبل الخلايا T، عندما يقدم له من قبل CMH، فعندئذ يُبطل معرفة الفيروس. إضافة إلى ذلك فإن epitope الطافر، وبفعل "تضاد" غير مفسر أيضاً بشكل جيد سيتمكن من إيقاف تعرف الخلايا T.

المراجع

- (1) R.A. Koup
et al., J. Virol.,
68, 4650, 1994.
- (2) S. L'rhamedi-
Cheradi
et al., AIDS,
6, 1249, 1992.
- (3) P. Langlade-
Demoyen *et al.,*
J. Clin. Invest.,
93, 1293, 1994.
- (4) S. Rowland-
Jones *et al.,*
Nature Medecine,
1, 59, 1995.
- (5) R.A. Koup,
J. Exp. Med.,
180, 779, 1994.
- (6) I. Couillin *et*
al., J. Exp. Med.,
180, 1129, 1994.
- (7) A.K. Field
et al., Clin.
Microbiol. Rev.,
7, 1, 1994.
- (8) B.A. Larder
et al., Nature,
365, 451, 1993.
- (9) B.A. Larder
et al.,
J. Gen. Virol.,
75, 951, 1994.
- (10) D.D.
Richman, *AIDS*
Res. Hum.
Retroviruses,
10, 901, 1994.
- (11) J.M. Collin,
Science,
267, 483, 1995.

التحريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

بحوث ودراسات في التعليم العالي

التأهيل التربوي للمرشحين للتدريس في المرحلة الجامعية: المفهوم والمبررات

الدكتور علي القرشي

الأستاذ المساعد في جامعة عمر المختار

البيضاء . ليبيا

لم تعد أهمية تأهيل المعلم تربوياً ومهنياً محل شك على مستوى المرحلتين الابتدائية والثانوية، إلا أن التساؤل يثار حول مدى ضرورة ذلك بالنسبة لأستاذ المرحلة الجامعية. وفي هذا البحث سنحاول الإجابة عن هذا التساؤل المثار من خلال توضيح مسوغات التأهيل التربوي للمرشحين لعضوية الهيئات التدريسية في الجامعات. وقبل أن نتناول ذلك لابد أن نبدأ بتحديد معنى التأهيل التربوي مع بيان موقع التدريس ضمن الوظائف التي تضطلع بها الجامعة اليوم.

أولاً: ما المقصود بالتأهيل التربوي؟

التأهيل التربوي بوجه عام يقصد به إكساب الصفات التربوية والنفسية والاجتماعية والعقلية والخبرة التجريبية التي تقرر صلاحية احتلال المعلم موقعاً تربوياً⁽¹⁾. وتحديدًا نقصد هنا بالتأهيل هو كل إعداد لممارسة مهنة التعليم الجامعي بالنسبة للباحثين على الشهادات العليا ممن لم يمارس هذه المهنة، أو مارسها دون تحصيل تربوي مسبق. وهذا لا يتم إلا بتزويدهم بالمعارف التربوية والنفسية التي يكتسبون من خلالها الوعي بفلسفة التعليم العالي وقيمه وأهدافه العامة

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

والخاصة، هذه المعارف التي تجعلهم قادرين على فهم الطلبة وإجادة التعامل معهم، إضافة إلى تمكينهم من تنظيم المعرفة وإعدادها واكتساب فنون التدريس وطرائقه وأساليبه، والقدرة على استخدام تقنياته ووسائله المناسبة وتدريبهم علمياً على ذلك، إلى غير ما ذكر مما تتطلبه ضرورة الممارسة المهنية وحسن الأداء فيها.

وهذا التزويد والاكساب لا يتم إلا من خلال الانتساب إلى كلية تربية أو معهد تربوي، وعبر دورة تتم في هذه الكلية أو المعهد، وهذا هو ما نطلق عليه بشكل محدد التأهيل التربوي "Qualification" تمييزاً له عن مصطلحات أخرى كالإعداد "Preparation" والتكوين "Formation" والتدريب "Training".

والإعداد يقصد به الصناعة الأولية للمعلم كي يزاول مهنة التعليم، وتتولاه مؤسسات تربوية مثل معاهد إعداد المعلمين وكليات التربية أو غيرها من المؤسسات ذات العلاقة تبعاً للمرحلة التي يعد المعلم للعمل فيها. ووفقاً لنوع التعليم. كأن يكون عاماً أو صناعياً أو تجارياً أو زراعياً أو غير ذلك. وبهذا المعنى يتم إعداد الطالب. المعلم ثقافياً وعلمياً وتربوياً في مؤسسته التعليمية قبل الخدمة⁽²⁾. وهذا ما يتم عادة بالنسبة لمعلمي المراحل الابتدائية والثانوية والمهنية. ويفهم من الإعداد، في الغالب، أنه يشمل إضافة إلى ذلك تنشيط ما اكتسبه الطالب في مواقع يمارس فيها بعض الفعاليات التربوية⁽³⁾.

أما التكوين فهو ما يجري من عمليات تنشئة الطالب المراد تخريجه معلماً، وذلك بهدف إعدادة إعداداً متكاملًا من الناحيتين الأكاديمية والمهنية.

على حين يطلق مصطلح "التدريب" على تلك العمليات النمائية التي يتلقاها المعلم أثناء الخدمة، لضمان مواكبته للتطور الذي يطرأ على المنهج وطرائق التعليم ومعارف التربية وفنونها المستحدثة الناجمة عن التطور الاجتماعي والتقني المستمر، وبهذا المعنى يصبح التدريب عملية تنمية مستمرة لمفاهيم المعلم ومهاراته الأدائية، وتنمية لمعلوماته وقدراته في إطار محتوى تربوي فكري معين⁽⁴⁾. كما يطلق التدريب على الفعاليات التربوية الرسمية وغير الرسمية وتجارب الخبرة

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

التي تساعد عضو المهنة التعليمية أو الأشخاص الذين يهيئون أنفسهم لعمل تربوي من خلال معهد مسؤول⁽⁵⁾.

واختيارنا للمفهوم الأول "التأهيل" وإضافته إلى أساتذة الجامعة يهدف أساساً إلى معالجة التهيئة التربوية المطلوبة لحاملي الشهادات العليا ممن يراد التحاقهم بالعمل التدريسي الجامعي بعد اجتيازهم التكوين العلمي والإعداد الأكاديمي غير المسبوق بتأهيل تربوي وغير المصحوب بتكوين مهني يهدف إلى مساعدتهم على الاضطلاع بمسؤوليات مهنة التعليم المرشحين لامتحانها بعد التخرج. وهذا يعني أن التأهيل بهذا النحو هو المدخل الوحيد لانتساب حملة الشهادات العليا لعضوية هيئة التدريس في الجامعات.

وبحثنا هذا سيتناول التأهيل على أنه الأنسب في مواجهة تهيئة حاملي الشهادات العليا للانتساب إلى العمل المهني التعليمي في القطاع الجامعي، نظراً لأن هذا الصنف من المرشحين (ممن لم يسبق لهم الإعداد أو التكوين التربوي أو المهني) يؤلفون الآن المصدر الأساسي لشغل عضوية الهيئات التدريسية في الجامعات العربية.

ثانياً: التأهيل التربوي ووظائف الجامعة

تضطلع الجامعة بوظائف أساسية أهمها: التدريس، والبحث، والخدمة العامة، فهي من خلال "أطرها" العلمية التدريسية على اختلاف درجاتها تقوم بتعليم المعرفة الأولية لطلاب السنوات الجامعية، ومن ثم تزويد المجتمع بالمهارات والكفايات الثقافية والمكتبية والمهنية والتقنية والإنتاجية، إضافة إلى ما تقوم به من خلال العملية التعليمية في أنشطة وممارسات تربوية لتكثيف الأفراد ضمن الأهداف العامة للمجتمع.

ثم إن الجامعة هي أحد المراكز العلمية التي تجري في ظل أروقتها وداخل مختبراتها ومعاملها البحوث الأكاديمية والدراسات العلمية والتجريبية. كما تمتد أنشطتها إلى الدراسات الميدانية لتعميق البحث والاستكشاف. والجامعة بحكم أنها مؤسسة اجتماعية، تُعنى بالقضايا الحيوية في المجتمع. وفي مقدمة ذلك تقديم الخدمات الاستشارية ووضع الدراسات وإنجاز بعض

المشاريع المتصلة بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية والعملية.

إن المجتمع والدولة في البلدان المتقدمة كثيراً ما يعتمدان على ما تقدمه الجامعة من معلومات وبيانات وإحصاءات تتعلق بالواقع ومشكلاته الاجتماعية والاقتصادية وهذا يدل على أن الخدمة العامة هي من الوظائف التي يمكن أن تهتم بها الجامعة.

ثم إن الوظائف الثلاث المذكورة إذ تتصل فيما بينها فإنها تؤلف الدور المتكامل الذي يمكن أن تضطلع به الجامعة الحديثة.

إلا أن وظيفة التدريس تظل الأولى بين وظائف الجامعة التي ذكرناها. وهذه حقيقة تفرضها مبررات نشأة الجامعة والطبيعة المتفردة للتدريس الجامعي الذي لا يمكن أن يكون ذا معنى خارجها. إلا أن ثمة اعتقاداً خاطئاً يسود عند بعض الإدارات الجامعية ولدى العديد من الأساتذة والباحثين مفاده أن العملية البحثية هي الأمر الأهم في أعمال الجامعة وأبرز ما يعطي الأستاذ الجامعي صفة الامتياز. وهو اعتقاد يؤدي إلى وضع وظيفة التدريس ومن ثم مستلزماتها في غير مكانها من سلم الأولويات. ففي العام 1964 كشفت لجنة Halo البريطانية عن أن من معوقات الأخذ بطرائق التدريس الحديثة تحمس معظم المدرسين للبحث دون التدريس، وتصورهم إن نجاحهم مرهون بنتائج أبحاثهم لا بمستوى تدريسهم. ومن النادر أن يصرفوا جهودهم لتحسين الطرائق والأساليب التدريسية. كما يتحدثون بحماسة عن إمكاناتهم في مجال البحث⁽⁶⁾. وهذا التصور أخذ يقوى في كثير من جامعات العالم. ولدى الكثير من أعضاء الهيئات التدريسية.

انه على الرغم من قيمة القدرات البحثية في تقديم الشخصية العلمية للأستاذ الجامعي. إلا أن ذلك لا يعني أن تقدم الأستاذ في هذا المجال يعفيه من حالة الضعف أو القصور في المجال الآخر. وإذا لم نكن هنا بصدد المفاضلة بين الوظيفتين المذكورتين فإن ما نحتاج إلى تأكيده هو أن البحث وظيفية، والتدريس وظيفة أخرى، بل إن التدريس يحتل المركز الأول من حيث الترتيب على اعتبار أنه يحتل أوسع مساحة من أعمال الأساتذة، ولم لا أليس هو الوظيفة الأساسية التي أنشئت من أجلها الجامعة، لاسيما وأن طلاب الدراسة الجامعية الأولية يحتلون المجال الأكبر في

أنشطة الجامعة وأشغال مدرسيها.

إن الأستاذ المؤهل أكاديمياً يكفي كحد أدنى أن يكون ناجحاً في أدائه التربوي متمثلاً في إدراك أهداف التعليم الجامعي، وفهم نفسية الطلبة وخلفياتهم الاجتماعية. فضلاً عن جودة تنظيم المعرفة وتوصيلها الفعال. وهذه هي المهمة الأولى التي لا يمكن الحديث عن مهمة ثانية وثالثة قبل استيفائها فيمن يباشر مهمة التعليم.

إن مما يلزماً وعيه هو أن لكل وظيفة من الوظائف الثلاث للجامعة متطلباتها، فالحصول على الدكتوراه والتمكن من العلم والمعلومات الواسعة لا يعني بالضرورة الوفاء بكل هذه الوظائف، فلكل وظيفة مهارات عمل مختلفة عن الأخرى، على الرغم من الصفات المشتركة بين البحث والتدريس والخدمة العامة⁽⁷⁾.

أما فيما يتعلق بالبحث فينبغي لل قائم به أن يمتلك بالضرورة تفكيراً منطقياً وقدرات عقلية ومهارات تحليلية وتنظيرية، وقبل ذلك أن يتمتع بروح علمية وذهنية موضوعية تعصمه من الانحراف عن الحقائق وتلزمه بتسجيل الوقائع الصحيحة وإعلان المعطيات دون تحيز أو تزوير. أما التدريس فهو نشاط عقلي انفعالي له أبعاد شخصية وثقافية واجتماعية كما أن له أبعاداً فنية وتقنية، وهو في حقيقته موقف علمي وقدرات شخصية في الاتصال لا بد من تغذيتها بالمعرفة النفسية والتربية المتطورة التي تخدم الموقف التعليمي وتقوي فاعلية التعليم.

إن التأثير والتأثر بين الأستاذ وطلابه لا يكونان تربويين ما لم يتم التدريس في إطار من الاحترام المتبادل وغير المشروط. ولهذا يؤكد التربويون الجوانب الإنسانية في التدريس، حتى تصبح "طريقة التدريس" في الدرجة نفسها التي تحتلها: مادة التدريس "إن لم تكن أكثر أهمية"⁽⁸⁾.

إن التدريس الذي نتحدث عنه هنا ليس بصفته عملية فنية مجردة تتصل بالتنظيم الجيد للمنهج والطريقة المثلى للتدريس، بل على أنه عمل علمي وموقف اتصالي واجتماعي يستلزمه الوعي الكامل للأهداف التعليمية والتبصر بنفسيات المتلقين وخلفياتهم الاجتماعية. وما يقتضيه ذلك من مبادئ صحيحة في العلاقة والتمييز والتعامل والتقويم.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

وهذه الصفات قد لا تبرز في شخصية الأستاذ العالم أو الباحث ما لم يكن قد تم إعداده أو تأهيله تربوياً بشكل جيد.

ومن الملاحظ أن برامج الدراسات العليا في معظم جامعات العالم لا تخرج إلا المعدين علمياً وأكاديمياً، إذ إن المقررات والأنشطة التي تحتويها هي في الغالب تتصل بالتخصص الأكاديمي والتدريب على الممارسات العلمية والبحثية فقط. وبرامج كهذه لا تؤهل لممارسة مهنة التعليم الجامعي التي لا بد فيها من الدراسات والتدريبات التربوية التي تساعد العالم على توصيل علمه وتكسبه الوعي الجيد للموقف التعليمي من كل جوانبه.

لقد أشار "كليبر" منذ العام 1959 إلى أن العامل الأساسي لتدني مستوى التدريب في الجامعات الأمريكية يرجع إلى أن أغلبية أعضاء هيئات التدريس فيها لم يعدوا إعداداً خاصاً للقيام بمهام التدريس الجامعي، ولاعتقاد الكثيرين الخاطئ أنّ إتيان الأستاذ الجامعي لعلم ما كاف ليكون قادراً على تعليم ذلك العلم⁽⁹⁾. لهذا كان الحصول على الدكتوراه يعني اكتساب الرخصة التي تجيز حق ممارسة التدريس وهذا غير صحيح لأن الدراسات العليا إذا كانت تكسب العلم وتدريب على البحث وتمنح مهاراته، فإن التدريس يختلف عن البحث فالباحث يتعامل مع الأشياء، على حين يتعامل المدرّس مع البشر، ولهذا لا يجوز استعمال مصطلحي التدريس والبحث استعمالاً تبادلياً⁽¹⁰⁾.

ومن هنا كان لا بد من إدراك أن وظيفة التدريس هي واحدة من أهم الوظائف التي ينبغي إبرازها في وظائف الجامعة ولا بد أن تكون إجازة ممارستها مشروطة بالتأهيل التربوي.

ثالثاً: مسوغات التأهيل التربوي للمرشحين للتدريس الجامعي:

إذا كان التدريس هو الوظيفة الأولى لأستاذ الجامعة كما عرفنا فإن التأهيل التربوي هو أمر يستند إلى مسوغات موضوعية ذات أبعاد علمية ومهنية وعملية يفرضها حقل التعليم الجامعي ومقتضياته، ويمكن إجمال هذه المسوغات بالنقاط التالية:

1. الفروق الفردية والاجتماعية بين طلبة الجامعة: ثمة فروق فردية واجتماعية بين طلبة الجامعة تقتضي معرفة خصائصهم النفسية وخلفياتهم الاجتماعية بغية وضع إستراتيجية مناسبة للتعامل مع كل صف أو مجموعة أو أفراد وذلك في ضوء مبادئ علوم النفس والتربية والاجتماع وعلى مستويات التعامل الإنساني وتقدير المواقف والتقويمات السلوكية والذهنية والوجدانية.

ولعل الفوارق المذكورة لم تكن بارزة بوضوح في البدايات المبكرة للتعليم الجامعي في كثير من جامعات العالم نظراً لأن أغلب الملحقين هم من أبناء النخب وممن ينتمون إلى الطبقات الاجتماعية المتقاربة والمميزة اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً. لهذا لم تكن ثمة حاجة كبيرة يحتاج إليها الأساتذة لمواجهة إشكالية الفروق، غير أن التعليم الجامعي بعد الحرب العالمية الثانية تحول نتيجة للانفجار السكاني إلى تعليم جماهيري، فتتوعد إثر ذلك أصول وخلفيات الطلبة الاجتماعية والاقتصادية كما ظهر التباين في قدراتهم الذهنية وميولهم ورغباتهم واتجاهاتهم وأصبح المجتمع الطلابي يضم أشخاصاً يتمايزون في الاستعدادات وسرعة التعلم واستيعاب المفاهيم ومعالجتها وقد تطلّب هذا من المدرس أن يكون متفهماً لكل هذه الجوانب المتباينة في شخصيات الطلاب وانتماءاتهم، وهذا تفهم وإلمام تقتضيهما آداب التعامل وقواعد الممارسة الصحيحة في التعليم والاتصال.

2. تطور المعرفة التربوية والنفسية: إن التنامي في المعرفة النفسية والتربوية وما أخذت تقدمه البحوث والدراسات من معلومات وتفسيرات مستجدة لجوانب السلوك الإنساني المختلفة إضافة إلى ما يشهده فن التعليم من تطور في تقنياته وأساليبه وطرائقه المستحدثة أخذ بفرض على الأستاذ الجامعي أن يكون مواكباً لتلك المعطيات والفنون من أجل تعليم أفضل لاسيما مع تزايد أعداد الملحقين وتوسع حقول العلم وتنوع التخصصات. ومن هنا علينا أن نفهم أن التنامي والتطور العلمي والفني صار يتجاوز حتى الذين قد سبق لهم حيازة بعض المعرفة والخبرة التعليمية، فالتطور في المعرفة والأساليب يحتاج إلى تطور في عرضها وممارستها وهذا يعني أن العرض الملائم للمعرفة حين يكون أكثر صعوبة مع كل تغيير يحتاج إلى كفاءة تعتمد على متابعة مستمرة لمعطيات البحث⁽¹¹⁾.

إن شمة قصوراً أخذ يتضح في بعض طرائق التدريس التقليدية في الجامعات وقد تجلى ذلك في عدم مناسبة تلك الطرائق للأعداد الكبيرة من المتلقين، وعدم استفادتها من قوانين التعلم ونظرياته المستحدثة، فضلاً عن تخلفها عن معطيات البحث التربوي المتجدد وتطبيقاته الحديثة، فكان من نتائج ذلك تسرب الكثير من طلاب الجامعات قبل استكمال دراساتهم وشيوع ظاهرة الرسوب وضعف مستوى الخريجين وعدم كفايتهم الإنتاجية في مجالات الطب والهندسة⁽¹²⁾. وغيرها من المجالات.

لقد ازداد بروز هذه النتائج في العقود الأخيرة من هذا القرن ولاغرو أمام ذلك أن يتنادى بعض التربويين لضرورة التأهيل أو التدريب التربوي قبل الالتحاق بالمهنة وفي أثنائها.

3. التدريس علم له أصوله وقواعده: التدريس عملية يمكن ملاحظة أدائها وممارستها ومن ثمّ يمكن قياسها وتقييمها، وهو بهذا علم يمكن إخضاع قواعده إلى التعليم ومهاراته إلى التدريب وهذا يعني أن تعلماً وتدريباً كهذا يمكن اكتسابه حتى بالنسبة للشخص الذي ليس لديه موهبة التدريس أصلاً.

من هنا تصبح مقولة التأهيل التربوي معقولة لمن يراد له أن يكون معلماً، بل تصبح ضرورية إذا نظرنا إلى التطور الحادث في عمليات تنظيم المناهج وطرائق التدريس وفنونه وأساليبه لاسيما مع تعدد المواد الدراسية الجامعية وتنوعها وما يتطلبه التعدد والتنوع بين تخصص وآخر من استخدام لطرق مختلفة وأساليب متعددة سواء في التنظيم المنهجي أو في التأليف المدرسي أو في التدريس أو التعزيز والتقويم.

إن التطور الهائل في وسائل الاتصال وتضاعف مصادر المعرفة المتوفرة لدى الطلبة أدى إلى تغير في دور الأساتذة إذ أصبح دور الأستاذ "منظماً" للعملية التعليمية وفي المقابل يؤدي الطالب دوراً فعالاً من خلال المناقشة ونظام الحلقات والتعليم الإرشادي والتدريس الفرقي والتعليم المبرمج. وبناء على ذلك صار من الضروري أن يكون الأستاذ الجامعي معداً لهذا التغيير التربوي⁽¹³⁾.

4. التطور التقني في الوسائل والأجهزة التعليمية: لقد أضحى التطور التقني الحاصل في مجال الوسائل والأجهزة خاصة ما يتصل منها بالفروع العلمية والتطبيقية ذا صلة بحيوية العملية التعليمية من حيث إدخال عناصر الانتباه والإشارة والدربة والتعزيز، وهذا يستدعي أن يكون الأستاذ مستوعباً لهذه المستحدثات ومتعلماً لطرق استخدامها واختيارها وإنتاجها بشكل مناسب وصحيح سواء في حجرة الدراسة أو المختبر أو على الطبيعة⁽¹⁴⁾.

يرى أونيشكن Onuskin أن التطور التكنولوجي العالمي وآثاره على عمليتي التعلم والتعليم من خلال استخدام المؤسسات التعليمية للتلفاز وأجهزة الحاسوب (الكمبيوتر) والعرض ونحوها قد جعل من معرفة الأستاذ الجامعي لها وحسن استخدامها مسألة ضرورية⁽¹⁵⁾.

ويمكن القول إن معرفة الأستاذ الجامعي للطرائق والأساليب التعليمية الجديدة، وتدريبه على استخدام الوسائل والأجهزة والتقنيات المستحدثة بات من ضرورات الارتقاء بمستوى أدائه بصفته مرسلًا، فضلاً عن توفير سهولة الهضم عند الطالب بصفته مستقبلًا.

5. مسوغات التأهيل التربوي بين معلم الابتدائية والثانوية وأستاذ الجامعة: إن العملية التعليمية في الجامعات شأنها شأن العملية التعليمية في المراحل الدنيا تحتاج إلى عالم مرب مدرك للمبادئ والقوانين النفسية والتربوية التي قد تساعده على فهم شخصية الطالب وإدراك ميوله ومعرفة اهتماماته واتجاهاته ومشكلاته. إضافة إلى ما توفره المعرفة التربوية والنفسية من وعي للأهداف وتنظيم للمنهج واختيار مناسب لطرائق التدريس والأنشطة التعليمية والتربوية. وكل ذلك من شأنه أن يدعم موقفه بصفته قائداً ومعلماً وقُدوة.

لذلك لا معنى أن يكون الإعداد أو التأهيل التربوي مقتصرًا على معلمي المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية والفنية دون أساتذة المرحلة الجامعية فطالب الجامعة لا يختلف عن طالب الثانوية إلا في المرحلة العمرية والعقلية والوجدانية، فكل مرحلة حالاتها وأبعادها ومشاكلها، لهذا لا بد من توفّر الأستاذ الجامعي على ما تستلزمه المرحلة الجامعية من معرفة ومهارات نفسية وتربوية واجتماعية تساعده على التدريس الجيد والاتصال الناجح. كما أن التدريس لهذه المرحلة

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

يحتاج إلى تقديم للمنهج وأداء للتدريس بطرائق وأساليب مناسبة ومجدية فضلاً عن أن للتعليم العالي أهدافه العامة والمباشرة. وأن أهمية الوعي لهذه الأهداف كأهمية وعي معلمي المراحل الابتدائية والثانوية لأهداف التعليم لهذه المراحل، إن لم يكن أكثر، على اعتبار أن الوعي لأهداف التعليم العالي والجدية في تحقيقها يدخل ضمن القضايا الملحة التي تتصل بالحاضر والمستقبل القريب الذي يهم الطالب والمجتمع.

من جهة أخرى إن معلمي الابتدائية والثانوية لا يمارسون عملهم إلا وقد جهزوا من قبل السلطات التعليمية بمناهج تعليمية منظمة وكتب مدرسية موضوعة. من قبل لجان علمية وتربوية متخصصة، يراعي في وضعها عادة المبادئ والاعتبارات التربوية، سواء في اختيار المحتوى أو في أسلوب التنظيم المنهجي، أو في لغة الكتابة وأساليبها، بل إن المعلمين كثيراً ما تزودهم الجهات التربوية المسؤولة بإرشادات وبيانات تتصل بالوسائل والتقويم والاختبارات التي تواجه عملهم وأنشطتهم فضلاً عن خضوعهم دورياً إلى زيارات المشرفين التربويين الذين يقومون أداءهم بشكل مباشر .

فإذا كان كل هذا يتم بعد التحاق معلمي هاتين المرحلتين بالمهنة على الرغم من سبق اجتيازهما للإعداد التربوي، فكيف الحال بالنسبة لأستاذ الجامعة الذي لا يخضع لمثل هذه الظروف وهو سيد الموقف تربوياً في مجال عمله؟! أليس الأولى أن يكون هو الآخر قد سبق له الإعداد أو التأهيل، أو على الأقل توفير ذلك في أثناء الخدمة؟.

إن أستاذ الجامعة هو الذي ينظم المنهج ويحدد مفرداته التفصيلية ويقوم بتوزيعها ضمن الإطار العام الذي تقرره الوزارة أو الأقسام العلمية. كما أنه هو الذي يؤلف الكتب الجامعية المقررة على الطلبة، أو يختار ما ألفه غيره منهجاً للتدريس ومراجع أساسية للمنهج وهو الذي يحدد برامج العمل فيختار الطرائق التدريسية والوسائل التعليمية والأنشطة المختلفة التي يراها مناسبة، بل إنه تحت ظل مشروعية الحرية الأكاديمية قد تتسع مبادراته وحريته في العمل دون أي إشراف تربوي، ومن ثم فإن توفر الشروط والخصائص التربوية في شخصيته وتكوينه تغدو

أكثر ضرورة من معلمي المراحل الأخرى. وبناء على ذلك فإن دواعي إعداده أو تأهيله . من هذه الزاوية . تصبح أقوى، لاسيما إذا عرفنا أن الكثير من الأساتذة والمُلتحقين حديثاً بمهنة التعليم الجامعي، وفي جامعاتنا العربية بوجه خاص، لا يحملون إعداداً تربوياً مسبقاً والأغلبية منهم لا يملكون خبرة في مجال التعليم، فدراساتهم الأكاديمية لا تمت بصلة إلى جوهر العملية التعليمية ومسؤولياتها ومن ثَمَّ فإن ممارستهم للمهنة تخضع للمحاولة والتجربة والخطأ، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى ضياع كثير من الجهد والوقت والعَوَق⁽¹⁶⁾.

6. أهمية وعي الأستاذ الجامعي لفلسفة المجتمع وحساسية إدراكه لأهداف التعليم العالي:
للتعليم في كل مجتمع فلسفة وأهداف تسهم كل مرحلة من مراحله في التعبير عن تلك الفلسفة والاقتراب من تلك الأهداف. ولا يختلف أساتذة التعليم العالي عن غيرهم إلا في كونهم الأكثر مسؤولية من الناحية العملية باعتبار أنهم يتولون إعداد الشباب ممن هم في مرحلة الانتقال إلى الحياة العملية. وهذا يعني أن التعليم الجامعي هو أقرب حلقة تصل بالطالب إلى دنيا العمل ومباشرة الخدمة العامة.

إذن فالمرحلة الجامعية هي المرحلة التي ترسم عبر مقاعدها وقاعاتها ومختبراتها للمسات الختامية لمعالم قيادات المستقبل. ولهذا فالأستاذ الجامعي لا يمكن والحال هذه إلا أن يكون المشرف الذي يتولى عملية الدفع والتقريب والصياغة الختامية التي تعد الأطر والقيادات إلى دائرة المستقبل. وهذا دور حساس دون شك لا بد أن تتوفر فيمن سيضطلع به الخصائص التي تؤهله للعمل على بلورة عقول الشباب وقيمهم وتكوين اتجاهاتهم وصقلها على النحو الذي يخدم الأهداف التربوية العامة وأهداف التعليم الجامعي بوجه خاص.

وهذه وظيفة تربوية مهمة دون شك، فإن كان أستاذ الجامعة مجرد مدرس لمادة علمية ضيقة أو موصل لحقل محدد من المعرفة وليس على وعي واتصال بالأهداف العامة للمجتمع ولا على التصاق بالقيم المستهدفة والاتجاهات المرغوب فيها وليس بمستوعب لأهداف التعليم الجامعي وأولوياته التي تتحكم في تحديدها المرحلة الاجتماعية التي يعيشها المجتمع واحتياجاته الراهنة

والمقبلة، فكيف يمكن أن يسهم في تكوين خريجين جيدين أو يعد أطراً فعالة فيجعل كلاً في مجاله وبحسب الحقل الذي ينخرط عما قريب في سلكه؟!.

إن الأستاذ الجامعي لابد أن يكون على دراية مسبقة بالأهداف العامة للمجتمع وأهداف التعليم العالي، وأن يكون مدرباً على اشتقاق الأهداف العامة والتعليمية والسلوكية من خلال المواد الدراسية والأنشطة الجامعية التي يمارسها، وليس بوسعه إدراك تلك الأهداف والسير في اتجاهها بمجرد إعداداته العملية والأكاديمي، بل لابد أن يكون قد اجتاز التأهيل التربوي الذي يتضمن دراسة تلك الأهداف والتنوعية بها وبمستوياتها المتعددة، واكتساب القدرة الفنية على اشتقاقها وصوغها والقدرة على الربط بين الأهداف بمستوياتها المتعددة من جهة، وبينها وبين العملية التعليمية من جهة أخرى.

في ضوء العرض المتقدم يتبين لنا أن التعليم الجامعي شأنه شأن المستويات الأخرى من التعليم لابد للانخراط به من تأهيل تربوي يهيئ المرشح له للقيام بدوره بالشكل الأفضل والمطلوب. ذلك أن التخصص العلمي وحده غير كافٍ لتكوين الأساتذة الجامعيين مهما كان إعدادهم الأكاديمي عالياً، بل إن هذا الإعداد لا يغني أبداً عن الإعداد التربوي. فالطلبة الجامعيون سواء في جامعات العالم النامي أو في جامعات العالم المتقدم هم الطلبة أنفسهم يجمعهم قاسم مشترك من الصفات العامة لمرحلة المراهقة المتأخرة ومرحلة الرشد، فمشاكلهم العمرية والعقلية والوجدانية في أبعادها البشرية متقاربة إلى حد ما. لهذا فإن من يتعامل معهم من الأساتذة يحتاج إلى فهم ودراية بطبيعة هذه المرحلة وأبعادها المتعددة ومشكلاتها، وهذا لا يمكن توفره دون الدراسات النفسية والتربوية والاجتماعية التي تمنح القدرة على حسن التعامل وإدارة الطلبة بشكل ناجح. فضلاً عن الدراسات الفنية في إعداد المناهج وطرائق التدريس وأساليبه وتقنياته. لهذا من الطبيعي أن نقرر بأن تأهيل عضو الهيئة التدريسية أينما كان هو ضرورة موضوعية تفرضها الحاجات الذاتية للأستاذ الأكاديمي الذي لم تكن دراسته العلمية المتخصصة ذات صلة بمهنته أستاذاً وهي مهنة لها شروطها ومهاراتها وفنونها التي تحتاج ممن يمتنها إلى دراسة تلك الشروط والمهارات والفنون واكتساب عناصرها والتدريب عليها.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

انه في ظل غياب الإعداد أو التأهيل التربوي لأعضاء الهيئات التدريسية تبرز ظاهرة القصور التربوي وضعف الأداء التعليمي الذي صار يشمل الكثير من الأساتذة في كثير من جامعات العالم، وقد أسهم ذلك . كما هو الملاحظ في تدني مستوى التعليم وضعف كفايته، حتى إن أكثر تلك الجامعات قد فقدت بريقها ومكانتها الأولى التي كانت تتحلى بها في ظل أساتذتها المؤسسين وروادها الأوائل الذين توفرت في غالبيتهم . على ما يبدو . مقومات الشخصية التربوية.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

المراجع:

- (1) Carter.v Good (Editor): dictionary of Education Mc Gran Hill Book Company N.Y. 1973, P. 464.
- (2) جبرائيل بشارة (دكتور): تكوين المعلم العربي والثورة العلمية والتكنولوجية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، 1406 هـ . 1986م، ص 28 . 29.
- (3) Carter.v Good: OP. cit, P. 434.
- (4) المرجع الأسبق، ص 29.
- (5) Carter.v Good: OP. cit, P. 586
- (6) موفق حياوي (دكتور): دراسة مقارنة لإعداد وتدريب الأستاذ الجامعي، مجلة اتحاد الجامعات العربية، الأمانة العامة لاتحاد الجامعات العربية، العدد (22)، 1407 هـ . 1987م ، ص8.
- (7) أنظر وقارن: عزت الموجود (دكتور): التعليم العالي وإعداد هيئة التدريس الجامعي، مؤتمر الوزراء المسؤولين عن التعليم العالي في الوطن العربي، وثيقة رقم 7 (مطبوع بالاستئصال)، الجزائر، 1981م ، ص12.
- (8) المرجع السابق، ص 21.
- (9) موفق حياوي؛ مرجع سابق، ص81.
- (10) المرجع نفسه، ص 21 . 22.
- (11) Edmund J. King: Education and Social change, pergamon press, oxford, london, 1969, p. 202.
- (12) عزت عبد الموجود، مرجع سابق، ص8.
- (13) موفق حياوي، مرجع سابق، ص83.
- (14) قارن: عمر محمد مدني زكري (دكتور) ومهنى غنايم (دكتور): التأهيل التربوي للمدرس الجامعي، دراسة ميدانية بجامعة الملك فيصل، مجلة إتحاد الجامعات العربية، الأمانة العامة لاتحاد الجامعات العربية (26)، الأردن، عمان، 1991، ص 97.
- (15) المرجع الأسبق، ص 83.
- (16) لينة أبو نوار: الحاجة إلى التطور المهني لأعضاء الهيئات التدريسية في الجامعات العربية، مجلة التربية الجديدة، مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية في البلاد العربية، عمان، العدد (51)، السنة(17)، 1990م، ص124.

من أعلام
الحضارة العربية والإسلامية

تاريخ الكتابة عامة، والعربية منها خاصة

للباحث اللغوي الأستاذ

صلاح الدين الزعبلوي

1. تاريخ الكتابة وتطورها في القرون الخالية:

بدأ الإنسان يعبر عما يعتل في نفسه كتابةً في العصور الغابرة بعلامات تصويرية كانت أولى درجات السلم في فن الكتابة. فإذا عدنا إلى كتاب (العصور القديمة) للدكتور براستد (جايمس هنري) أستاذ تاريخ الشرق ورئيس دائرة اللغات والعلوم الشرقية في جامعة شيكاغو، وقد قام بترجمة الكتاب إلى العربية الأستاذ داود قريان، أحد أساتذة الجامعة الأمريكية في بيروت، أقول إذا عدنا إلى كتاب الدكتور براستد هذا، وجدنا أن أهل (الاسكا) مثلاً كانوا يكتبون رسائلهم صوراً رمزية على قطع من الخشب فتؤدّي معناها الذي يريدون. وكذلك كان هنود أمريكا، فقد سجلوا آثارهم رموزاً وصوراً، وهكذا فعل ملوك وادي النيل قبل ستة آلاف سنة. وقد أُسميت هذه الكتابة بالكتابة التصويرية كلما دلت الصورة فيها على المادة، كما سُميت بالكتابة الرمزية كلما رمزت بالصورة إلى معنى من المعاني.

واستمرت الكتابة على هذه الحال طويلاً إلى أن انتقلت من مرحلتها التصويرية الرمزية إلى المرحلة الصوتية حين تطوّر الإنسان فحاول أن ينطق باللفظ الذي يدلّ على ما تعنيه الصورة. فصورة الرغبة مثلاً قد أصبحت تُقرأ باللفظ الذي يدلّ على الرغبة.

فإذا عدنا إلى قدماء سكان وادي النيل نجد أنهم دلّوا بصورة (الفقة) على اسمها، فإذا رسموها عنوا بذلك أن ينطقوا بهذا اللفظ وهو (نب)، فكان هذا اللفظ هو المقطع الهجائي في أي كلمة وقع

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

فيها المقطع. وهكذا دلّوا بصورة (الأرنب) على اللفظ الذي سُمّي به الأرنب وهو (وم)، فغدا هذا المقطع الهجائي دالاً على اللفظ المذكور في أي كلمة وقع المقطع، وبذلك أصبحت لديهم طائفة كبيرة من الصور يدلّ كلّ منها على مقطع من الهجاء. وقد تنامي عدد هذه الصور حتى بلغ المئات، وتألّفت كل كلمة من عدة صور، فاستطاع الإنسان بهذا أن يستغني باسم الشيء عن رسمه أو الرمز إليه.

ويُفهم مما تقدّم شرحه أن المقطع هو الهجاء الواحد من الكلمة، وقد جاء على نوعين. أمّا الأول فكان يتألّف من حرف متحرك لا يليه ساكن فيُلَظّ كلّ حرف بحركته مُستقلاً عن الحرف الذي يليه. وأمّا الثاني فيتألّف من حرف متحرّك يليه ساكن.

وهكذا جاء المقطع في الكلمة حرفاً متحركاً مُستقلاً أو هجاءً مؤلّفاً من حرفين أولهما متحرك وثانيهما ساكن.

وفي مرحلة تالية انتقلت الكتابة من مرحلة المقاطع الهجائية إلى مرحلة الحروف، فأضحى لدى قدماء سكان وادي النيل مثلاً جملةً من العلامات تدلّ كل علامة منها على حرف فقط، وقد انتهوا بحروف هجائهم إلى أربعة وعشرين حرفاً، وهي الحروف الهيروغليفية، وقد خُصّصَت بالكتابات المقدّسة وكان إلى جانبها الحروف الهيروغليفية، التي خُصّصَت بها دواوين الدولة، وكان للعامة حروف سُمّيت بالديموطيقية، وهي أيسر هذه الحروف كتابة. ويعود تاريخ اهتداء قدماء سكان وادي النيل إلى استعمال الحروف، كما تدلّ الآثار، إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وقد سبقهم إلى ذلك الفينيقيون، إذ دلّت الآثار على أنهم عرفوا الأبجدية منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وذكر ذلك الباحث الكرواتي (ألكسندر شتيبيتشفتش في مؤلّفه تاريخ الكتاب). وقد تَرَجَم هذا المؤلّف إلى الألبانية الأستاذ فاضل بوياري، ثم ترجمه من الألبانية إلى العربية الدكتور محمد م. أرناؤوط.

2. تاريخ الكتاب:

جاء في الفصل الأول من هذا الكتاب أنه عُثِر في (أوغاريت) في رأس شمرا في اللاتينية

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

على رُقْم طينية تدلّ على أنّ الفينيقيين أوّل من رمز الأصوات بالحروف فاخترعوا الأبجدية في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

أقول إذا كانت أوّل كتابة تصويرية ومقطعية قد وجدت في سومر العربية شرقاً فإنّ أوّل تحوّل للكتابة من المقطعية إلى الحرفية، بالاهتداء إلى الأبجدية، قد تمّ على يد العرب الفينيقيين غرباً، ثم عمّت العالم بأسره، عن طريقهم. فقد اهتدى العرب الفينيقيون إلى أوّل أبجدية صوتية في العالم كتبت بالخط المسماري، ثم توصل أشقاؤهم في جبيل في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بتطويرها وكتابتها بالعلامات، إلى الأبجدية الفينيقية التي عمّت العالم، فكانت أمّ الأبجديات التي شاعت في عالمنا أجمع.

وهكذا فإنّ العالم كلّه يدين بالأبجدية إلى العقل العربي السوري. وكان السومريون قد دوّنوا مشاعرهم وأدبهم الوجداني وبعض مناحي فكرهم المجرّد بكتابتهم الرمزية التي كانت تُعد رموزها نحو ألف رمز ثم تطوّرت فتحوّلت إلى نحو ستمائة رمز.

وإذا اتخذنا اللغة المكتوبة الدليل الماديّ على تحديد هوية الشعب وجدنا أنّ السومريين والأكّاديين والعيلاميين والآشوريين والآموريين والآراميين والفينيقيين والكنعانيين، شعب واحد هو الشعب العربي، وكانت رقعة الوطن العربي تمتدّ من الخليج العربي إلى البحر المتوسط.

ولعلّ من الإنصاف أن ننوّه ببعض أبطال العرب السومريين كسرجون الأكّادي الكبير. كان سرجون الكبير هذا من أبناء الشعب العاديين، وكان إلى ذلك ساقى الملك الخاص. وقد كان يشعر بتماييز طبقات الشعب الأكّادي بين أمراء إقطاعيين وكهنة وقضاة هياكل ومسؤولين كبار من الموظفين ورجال حاشية ملكية إلى جانب العبيد. وقد كان يسمع الكثير من شكاوى الفلاحين والعمال والصنّاع. ولم يشغله عن ذلك ما كان يشهده من ولائم الملك الصاخبة وانغماسه في اللهو والملاذ فيفكر فيما كان يمكن أن يؤوّل إليه ذلك من إهمال لمصالح الشعب، وشؤون حياته عامة.

وإذا عرفنا ما كان يتميّز به سرجون هذا من سموّ في وجدانه وعزم في إرادته وقوة في شكيمة لم نفاجأ إذا رأيناه يوماً على رأس عشرات الألوف من الفلاحين والعمال والصنّاع وفرقٍ من

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

الجيش ثائرة، يقودهم ويزحف بهم إلى القصر الملكي ليخلع ملكه العاجز، ويقيم نفسه ملكاً لبيداً في الحكم عهداً جديداً يَتميّز بالإصلاح والعدل والمساواة والثقة بالنفس، فيؤلف جيشاً قومياً مؤمناً يتنَزَع بالحرية والعدالة يصونهما لأفراد الشعب فيحرّر الفلاحين والعمّال والصنّاع مما كان السادة الإقطاعيون يخصّون أنفسهم به من (امتيازات) جائزة تتجاوز كل معقول.

وهذا ما دعا المؤرّخين يفتّون في إحاطة سرجون هذا بألقاب فخمة كسرجون الأعظم وشارلمان أسية الغربية وسوى ذلك.

وهكذا مضى سرجون في تحرير الفلاحين والعمال والصنّاع من الامتيازات التي كان يباهي بها السادة من الكهنة والإقطاعيين وذلك عام ثلاثمائة وألفين قبل الميلاد.

ومن أبطال العرب السوريين الأموريين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد حمورابي. ولا تعود عبقريته إلى قدرته العسكرية وحسب، بل إلى فكره المتعمّق وتشريعه المتألّق، فقد خَلَف في بابل شريعة تضمّنت تنظيمات دقيقة لمبادئ المعاملات الماليّة والتجارية إلى جانب المواد المتعلّقة بالزراعة ووفاء الديون وأحوال الطلاق. وقد تألّفت من ثلاثة آلاف سطر من الكتابة المسمارية البابلية باللغة الأكادية التي كان يتكلمها البابليون ويدوّنون بها شرائعهم وآثارهم.

أما لفظ (السامية) فبدعة يهودية حديثة، وقد أكّد ذلك الدكتور أحمد داود في مقال له في صحيفة الثورة، في الخامس من شهر نيسان سنة تسعين وتسعمائة وألف، إذ قال إن استخدام علم اللغات استخداماً علمياً موضوعياً يبيّن لنا ثبوت الوحدة اللغوية العربية لجميع أقوام الوطن العربي القديم. وهو ما دلّ عليه أيضاً علم الكتابات القديمة حين أكّد وحدة الكتابة عندهم، إذ تطوّرت من التصويرية إلى المسمارية المقطعية فالمسمارية الأبجدية ثم إلى الأبجدية الحرفية التي عمّت العالم القديم منذ ذلك الحين وحتى اليوم.

وتوكّد مُعطيات القراءات الأثرية جميعها وحدة الحضارة للشعب العربي في أرجاء الأرض العربية كلها، على اختلاف تسمياتها، سومرية أو أكاديّة أو بابليّة أو آشورية أو فينيقية أو مصرية.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

وقد جاء للأستاذ حسان عزت في مقال كتبه في صحيفة الثورة يوم الثلاثين من شهر أيار عام تسعة وثمانين وتسعمائة وألف أن اللغة المصرية القديمة لغة عربية وأنه يمكن إرجاع كتاب (الموتى) إلى اللغة العربية، وأنّ علي علماء العربية إنجاز ذلك.

وقد جاء في مقال للدكتور على فهمي خشيم، عميد مركز اللغات الليبي، في العدد (57) من مجلة الشؤون العربية أنّ اللغة المصرية القديمة أو الفرعونية، لا تمتّ إلى اللغة العربية وحسب، بل هي اللغة العربية القديمة. وهو ما لم يتطرق إليه المستشرقون الذين وقعوا في الخلط الكثير لأنهم اعتمدوا المنهج التوراتي إذ كان معظمهم من اليهود. والخطأ الذي وقعوا فيه أنهم قسّموا اللغات إلى ساميّة وحاميّة كما ذهب إليه المستشرق شولتس، وفصلوا بين العربية والمصرية الفرعونية القديمة. وقد ذهب إلى ذلك الكاتب لويس عوض في كتابه (مقدّمة في فقه اللغة العربية) وقد صدر عام ثمانين وتسعمائة وألف. ويتحدّى الدكتور خشيم الدكتور لويس عوض أن يأتي بكلمة مصرية واحدة لا وجود لها في العربية. ويُردف ذلك فيقول أريد أن أقوم بتحدّي علمي بإرجاع كل كلمات الكتاب المصري (كتاب الموتى) إلى اللغة العربية. ويشير الدكتور خشيم إلى قلة العارفين باللغة العربية القديمة فيذكر أن آثار (إيبلا) أي (عبله) التي كشفت في أوائل السبعينيات لم يكن بين العرب من يستطيع فك رموزها، وهي لغة عربية واضحة ترجع إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد.

ومن أجل فهم اللغة المصرية القديمة يرى الباحث خشيم أن نرجع إلى المعاجم العربية القديمة فنعود باللغة المصرية إلى اللغة العربية المعاصرة خلال سنوات معدودة.

وهكذا بذل الدكتور خشيم ما في وسعه ليبرهن على صحة نظرية يطرحها في علاقة العربية بالمصرية القديمة، وعلى بطلان نظرية شولتس القائلة بتصنيف اللغات إلى سامية وحامية وأردو أوربية. وقد أورد سيلاً من الكلمات ذات الأصول المشتركة في العربية والمصرية القديمة.

هذا وقد خلص الدكتور أحمد داود في مقاله السابق، في صحيفة الثورة، في الخامس من شهر نيسان سنة تسعين وتسعمائة وألف، إلى أن الوجود العربي على الأرض العربية سابق لوجود

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

أي شعب آخر. وأن العرب قد أبدعوا على هذه الأرض أولى حضارات العالم، ومنها انتقلت إلى الأصقاع الأخرى للعالم القديم.

وتحدّث عن (السامية) إزاء الوجود العربي فقال إن الوجود العربي على أرجاء الوطن العربي موغل في القدم آلاف السنين قبل اختراع الكتابة. وهو يمتد إلى عشرة آلاف عام على الأقل قبل الحضارة والزراعة المستقرة.

أما لفظ (السامية) فلم يعثر عليه في أي من المكتشفات الأثرية، والمصدر الوحيد الذي تحدّث عن (سام) وأبنائه وأحفاده هو التوراة وما إليها. وقد نقل مدوّنو التوراة ذلك مما كان يتناقله سكان شبه جزيرة العرب مشافهة أو كتابة من أن زمن سام بن نوح إنما يعود إلى حادثة الطوفان التي وقعت قبل ثلاثة آلاف عام من الميلاد. وقد سبق وجود العرب هذا التاريخ في الألف التاسع والثامن والسابع والسادس والخامس والرابع قبل الميلاد، أي سبق وجودهم وجود سام آلاف السنين، فكيف يمكن أن يُنسبوا إلى (السامية)؟ فسام وأبناؤه وأحفاده من العرب وليس العكس، فالساميون فرع من فروع العروبة.

3. الكتابة عند العرب السومريين

ولنعد بعد هذا الاستطراد إلى صلب موضوعنا وهو تاريخ الكتابة. فقد جاء في مقال طريف يتصل بمضمونه بتاريخ الكتابة العربية للدكتور جورج كنعان في عدد اليوم الرابع من شهر كانون الثاني عام تسعين وتسعمائة وألف لصحيفة الثورة، أقول قد جاء في هذا المقال ما مؤداه أن التاريخ إنما يبدأ بظهور نظام صالح للكتابة. وظهر الكتابة المسمارية في سومر قد تم نظاماً تاماً مع انبلاج فجر التاريخ، ويعني هذا أن وراء هذا النظام تاريخاً طويلاً من التطور المستمر. ذلك أن اختراع الكتابة من أجل التعبير ونقل المعرفة وخن العلم وضبط الحساب إنما تمّ في مجتمعات مضت بعيداً في دروب التحضر والتمدن فانتظمت في دولة أو دول غدا لها علاقات اجتماعية وتجارية.

وقد شعر السومري العربي مع تقدّمه في مدارج المعرفة بالحاجة إلى ما يساعد ذاكرته على

حفظ تلك المعارف والمعلومات التي اهتدى إليها ووعاها فكره وإلى نقل ما يعتمل في صدره من مشاعر ويصطخب في عقله من أفكار، فكانت له كتابة تصويرية بدائية ما لبثت أن تطوّرت إلى رمزية فتخطيطيّة أشبه ما تكون علاماتها بالمسمار، ومن هنا كانت تسميتها بالمسمارية. وقد تم اهتداء السومريين إلى الكتابة التصويرية في الألف الخامسة قبل الميلاد. وقد تطوّرت إلى الكتابة الصوتية في الألف الثالثة ق.م. ويُعد السومريون في ابتكارهم للكتابة وسبقهم في ذلك مُفجّري العصور التاريخية.

قد كانت الكتابة السومرية وتطوّرها أعظم ما للسومريين من فضل على الحضارة العالمية. فقد استطاع الإنسان، أوّل مرة، أن يسجّل وقائع دائمة لأعماله وآماله ورغباته وأحكامه ومعتقداته، كما استطاع أن يذخّر ما تكّدس من معارفه.

وهكذا كان لاختراع الكتابة في سومر شأن أيّ شأن في تطوّر المجتمعات الإنسانية.

4. الكتابة عند العرب الكنعانيين

ثم تطوّرت الكتابة فاهتدى الكنعانيون في سورية الغربية إلى استخدام الكتابة الصوتية المقطعية فأصبح الرمز يمثل صوتاً معيّناً. وكان الكنعانيون أوّل من جرّد الصور التي كانت تستعمل لكتابة المقطع أو الكلمة فاستعاضوا عنها برموز يمثل كلّ منها وحدة صوتية، أي أنهم قاموا بتحليل نبرات الصوت إلى مركّبات بسيطة تمثّلها رموزٌ سُمّيت فيما بعد بالحروف الهجائية. وكان للكنعانيين السبق في ذلك كما لهم الفضل في أنهم كانوا الرواد في إذاعة ونشر الحروف الأبجدية في الشرق ابتداءً من الدول المجاورة، وفي الغرب ابتداءً من اليونان.

وقد حدّد الكنعانيون حروفهم الهجائية باثنين وعشرين حرفاً فكانوا أوّل قوم نقلوا الكتابة التصويرية إلى الأبجدية ومن المقطع إلى الحرف فحقّقوا بذلك انعطافاً تاريخياً منذ أربعة آلاف سنة.

أقول إن ابتداع الحروف هذه قد كان أسمى فعل تجريدي قام به العقل وأسهم فيه العرب

السوريون في مضمار الحضارة. إذ ليس بدعاً أن تعدّ الكتابة الأساس الذي قام عليه صرح الحضارة لأنها كانت الوسيلة إلى تسجيل المعرفة ونقلها، كما كانت العنصر الحضاري الوحيد الذي لم تقيد حدود الزمان والمكان، فجمع العناصر الحضارية تفعل فيها البيئة والتاريخ، المكان والزمان إلّا الكتابة. ولذا فقد عاشت الأبجدية جمع التطوّرات الحضارية، منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، تحت أشكال متعدّدة، في عالم يعيد النظر في كل مناهجه. وقد قال العالم موريس دونان في كتابه (أبجدية جبيل): "الأبجدية أثمن عطاء حضاري قدّمه الكنعانيون إلى البشرية، وهامي ذي باقية على ما اخترعت بعد أربعة آلاف سنة".

ومن الطبيعي أن تنتشر الكتابة الكنعانية هذه في رقعة تكون من السعة والعمق بمقدار ما كان للحضارة الكنعانية من قوة واتساع وأثر في الشعوب.

وقد تم انتقال هذه الحروف فعلاً إلى اليونان غرباً، في القرن الثامن قبل الميلاد، فنقلها الإغريق إلى أوربة برمتها، كما تم انتقالها إلى الآراميين شرقاً، في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، فأشاعوها بين سائر العرب والشعوب القديمة كالفرس.

5. الكتابة في المصادر العربية القديمة

ذهب كثير من المصادر العربية القديمة إلى أن (الكتابة) التي كتب بها العرب إنما هي (توقيف) من الله، علمها آدم عليه السلام فكتب بها الكتب وكان الكتاب الأول من نصيب إسماعيل عليه السلام. على أن هذا الرأي، كما جاء في كتاب (قصة الكتابة العربية) للأستاذ إبراهيم جمعة، لا يقوم على أساس من العلم أو سند من التاريخ الصحيح. وقد اعتنقه العرب وأشاعوه لتأييد النظرية القائلة بأن إسماعيل عليه السلام أبا العرب المستعربة التي منها قريش، هو أول من تكلم العربية وتعلّمها من العرب المتعربة وأخذها عنه بنوه.

ولم تذهب هذه الأقاويل على المؤرخ الاجتماعي ابن خلدون (ت 808 هـ) بل حكم بغنائتها وأنها أدنى إلى التخرّص والتكهن والرجم بالغيب، إذ قال في مقدمته، مقدّمة كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر): إن الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية فهي

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

على ذلك ضرورة اجتماعية اصطنعها الإنسان ورمز بها للكلمات المسموعة؛ والكتابة على ما هو معروف هي المرتبة الثانية من مراتب الدلالة اللغوية فهي تابعة في نموّها وتطوّرها شأن كثير من الصناعات المعاشية لتقدّم العمران.

يتحدّث ابن خلدون عن الكتابة العربية فيرى أن الخط العربي قد بلغ في دولة التبابعة في اليمن مبلغاً من الإحكام والجودة يناسب ما بلغته دولة التبابعة من الحضارة والترّف. وهو يذهب إلى أن الخطّ قد انتقل من اليمن إلى الحيرة التي كان يحكمها المناذرة نساء التبابعة اليمنيين في العصبية. ويردّف ابن خلدون فيقول: "ومن الحيرة لقّنه أهل الطائف وقرّش"، فيقع بذلك في الخطأ الذي وقع فيه كثيرون. فهو يرى أن الخط الذي انتهى إلى قرّش فكتبت به في الإسلام قد تصاعد إلى الحيرة من اليمن وانحدر من الحيرة إلى الحجاز، أي أنه يرى باختصار أن الأصل في الخط العربي الحجازي الذي نكتب به هو خط التبابعة المشهور بالمسند الحميري.

آ. الكتابة العربية والمؤرّخ البلاذري

تحدّث المؤرّخ البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر صاحب كتاب (فتوح البلدان) المتوفى (279 هـ) عن الكتابة فروى عن عباس بن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن جدّه، وعن الشرقي القطامي، أن ثلاثة من (طي) اجتمعوا في "بقة" هم مرامر بن مزة، وأسلم بن سدره، وعامر بن جدرة، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلّم منهم قوم من أهل الأنبار ثم تعلّم من هؤلاء نفر من أهل الحيرة.. ويقول ما معناه: وكان بشر بن عبد الملك الكندي أخو "الأكيدر" صاحب "دومة الحنّدل" يأتي الحيرة. فتعلّم الخط من أهلها.. فيسأله سفيان بن أمية بن عبد شمس، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب أن يعلمهما الخط فيعلمهما الهجاء والخط.. ثم يأتي بشر وأبو قيس الطائف فيعلّمان الخط نفرّاً من أهلها..

ثم يقول ما معناه إن بشراً هذا قد مضى إلى ديار مصر فتعلّم الخطّ منه نفر من أهلها، ثم رحل إلى الشام فعلم الخطّ فيها. وهكذا عرّف الخطّ بفضل بشر وهؤلاء الطائيين الثلاثة، عددًا لا يُحصى من أهل العراق والحجاز وديار مصر والشام.

ولكن ما الرأي فيما ذهب إليه البلاذري وهو يحاول أن يفسّر كيف انتهت الكتابة من الحيرة إلى الحجاز؟ نقول في الجواب عن ذلك إننا لا نأبى أن تصبح الحيرة مركزاً من مراكز تعليم الخط العربي في حقبة من الزمن لأن خط العرب الشماليين قد انتهى إليها في عهد من العهود في طريق رحلته من (ديار النبط) موطنه الأول إلى الحجاز ماراً بدومة الجندل والعراق الأوسط، ويؤكد الأستاذ جمعة ذلك في كتابه. ولا بدع أن تكون الأنبار والحيرة قد تلقفتا هذا الخط من بعض جهات الشام، ثم قامتا بمهمة الوسيط فأزجّتا إلى الحجاز، إلى المدينة ومكة بطريق دومة الجندل، وهذه، أي دومة الجندل، في طريق الارتحال يومئذ من الفرات الأوسط إلى الحجاز.

ولابدّ أن نتساءل هنا لماذا يناط الخط العربي بشخص بشر بن عبد الملك الكندي، كما يقول الأستاذ جمعة، بشر هذا الذي صورته الرواية رحالة طاف أرجاء شبه الجزيرة العربية ليعلم الخط، على حين أنه عاش في دماثة ودعة ورفاهية يتقلّب بين أعطاف النعيم.

وقد بدا الأستاذ جمعة محكم الرأي ثاقب النظر بعيد الغور حين يقول إن انتقال ظاهرة كظاهرة الكتابة هذه أمر يكون بطبيعته بطيئاً يصعب أن نتميز فيه أشخاص الناقلين. ويردف فيقول: على أننا نستطيع أن نستفيد من الرواية شيئاً آخر هاماً. فعلى فرض أن شخصية بشر هذه قد وجدت فعلاً وكلفت نفسها هذه المهمة العسيرة فلا بدّ أن تكون قد عاصرت . سفيان وحرباً . ولدي أميّة. ومعنى ذلك أن الكتابة العربية لابدّ أن تكون قد رحلت رحلتها إلى الحجاز في خواتيم القرن الخامس الميلادي.

ولابدّ أن نلاحظ هنا السجع في أسماء الطائيين الثلاثة الذين عزا البلاذري إليهم قياس هجاء العربية على هجاء السريانية، رواية عن عباس بن هشام بن محمد الكلبي، عن جدّه، وعن الشرقي القطامي، وهم مرامر بن مزة، وأسلم بن سدره، وعامر بن جدرة، فمجيء الرواية على السجع في الأسماء، ضمناً لحسن وقعها على الأسماع يثير الشك في صحة الرواية نفسها، وإلاّ فليس يسيراً أن يكلف مثل هذه المهمّة الحضارية الشاقة أناسٌ لمحض الرغبة في توفير خط يكتب به العرب.

ب. الكتابة العربية وابن النديم

يتحدث ابن النديم صاحب الفهرست عن الكتابة العربية فلا يذكر اسم بشر بن عبد الملك في روايته بل يسمي مكانه شصاً آخر هو أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، ويضيف إليه اسم حرب بن أمية، وينسب إليهما نقل الكتابة من الحيرة إلى الحجاز. ولا تفسير لمثل هذا التضارب في الأسماء إلا القول بأن انتقال الكتابة إنما كان نتيجة لرحلة الأعراب بين شبه جزيرة العرب ووادي الفرات، ذهاباً وإياباً، بقصد التجارة.

ولابد أن نقف هنا عند ابن النديم ونطيل الوقوف، ذلك أن ابن النديم هذا صاحب أول موسوعة علمية عربية إسلامية تضم أسماء الكتب والمؤلفين، فهو الرائد الأول في الفهرسة للثقافة العربية الإسلامية.

وابن النديم هذا هو أبو الفرج محمد بن إسحق النديم، وقد دُعي بالنديم أيضاً. وقد تحدث عنه وكتب فيه كثير من الباحثين، كما تحدث عنه الأستاذ عبد الحميد حمودة في مقال طريف في مجلة الناشر العربي، في العدد الثامن عام سبعة وثمانين وتسعمائة وألف.

ولد النديم على أرجح الروايات سنة (325 هـ) ببغداد وابتدأ تأليف كتابه سنة (377 هـ). وقد جاء في تاريخ المقرئ أن وفاته كانت سنة (380 هـ)، وفي مصادر أخرى أنها في أواخر القرن الرابع الهجري.

تخرج ابن النديم في العلم على شيوخ عمالقة كأبي سعيد السيرافي وأبي الفرج الأصفهاني والمرزباني وسواهم، وقد تبوأ كتابه الفهرست مكانة مرموقة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية. وقد ضم الكتاب مقدمات دلت على براعة المؤلف وعلو كعبه في هذه الثقافة، وواكبت هذه المقدمات أحكام كشفت عن سعة اطلاعه على علوم عصره وتضلعه منها. فاستطاع بذلك أن يجعل من كتابه الفهرست موسوعة للحضارة العربية الإسلامية الوسيطة. عُرف كتاب الفهرست في أوربة بطبع مخطوطة له قادمة من مصر أو القسطنطينية، وقد تم ذلك في (لايزيغ) في ألمانيا، منذ أكثر من مائة عام، بفضل المستشرق الألماني (غوستاف فلوجل) الذي أمضى خمسة

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

وعشرين عاماً في إعداد مخطوطة الكتاب. وجاء الكتاب المطبوع في مجلّد صفحاته (260) صفحة من القطع الكبير. لكنه بدا عند التحقيق أنه لم يكن كاملاً، إذ فاتته صفحات عديدة تتحدث عن كثير من العلماء.

وقد قام الباحث الإيراني الأستاذ رضا تجدد بتحقيق الفهرست وإصداره بالعربية في طهران سنة (1391) هـ، أي منذ نحو خمسة وعشرين عاماً.

على أن أكمل طبعة طُبِعَ به الفهرست كانت للعالم المغربي الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي الذي تُوفي منذ نحو عقدين من السنين، فقد جمع معظم مخطوطات الكتاب في العالم وأعاد تحقيقه فجاء أفضل تحقيق علمي، ويبدو أنه حصل على أجزاء من الكتاب لم يظفر بها الباحث الإيراني، وقد بات الكتاب المخطوط المحقق هذا من ممتلكات الدولة التركية، ويُرجى أن يغدو محل اهتمامها فتخرج به إلى النور خدمة للتراث العربي الإسلامي، وتأكيداً لجلاء غامضة وإظهار مكنونه وإبداء سرّه وإيضاح منهاجه. قسم ابن النديم كتابه إلى عشرة موضوعات خصّ كل موضوع منها بمقالة فتحدثت المقالة الأولى عن القرآن والعلوم القرآنية وتحدثت الثانية عن النحو والصرف، والثالثة عن التاريخ مما يتصل بالإخباريين والرواة والسير والأنساب، والرابعة عن الشعر والشعراء، والخامسة عن علم الكلام والمنكلمين، والسادسة عن الفقه والفقهاء والمحدثين، والسابعة عن الفلسفة والعلوم القديمة، والثامنة عن السحر والخرافة والعزائم والشعوذة، والتاسعة عن المذاهب والعقائد، والعاشر عن الكيمياء والصنائع.

وهكذا استطاع ابن النديم أن يجمع في كتابه ما أحاط به اطلاعه من مؤلفات في مختلف العلوم إسلامية أو دنيوية، سواء أجازت وشاعت مذهبه أو عقيدته أم لم تُجار وتُشايح، على أساس من التوثيق والتنظيم المنهجي، ذاكراً اسم المؤلف في كل فرع من فروع العلم، والكتب التي قام بتأليفها.

ويقول ابن النديم في الفهرست: "هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم، الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنّفِيها وطبقات مؤلّفِيها وأنسابهم ومواليدهم

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

ومبلغ أعمارهم".

وقد أصاب الأستاذ حمودة وجه الرأي حين أشار إلى أنه إذا كانت (البيبليوغرافية) الحديثة، التي عَنُوا بها (التقويم المنهجي للعلوم وتصنيف الكتب بحسب هذا التقويم) وكان رائدها الكاتب الأمريكي (ديوي)، في النصف الثاني من القرن الماضي، أقول إذا كانت هذه (البيبليوغرافية) قد تحققت في النصف الثاني من القرن الماضي، فإن ابن النديم قد حققها في كتابه منذ ألف سنة، وهذا ما يحاول أن يتناساه أو يتجاهله كثير من الباحثين.

فالواقع أن ابن النديم، كما قال حمودة، قد استطاع أن يطبق علم (البيبليوغرافية)، قبل ألف سنة، تطبيقاً فذاً، حين أحكم وصف المؤلفات ومقاييسها، وأحصى عدد صفحاتها وعَرَف لوحاتها ملونة وغير ملونة، واستطرد ففصل في ذكر موضوعاتها. فانظر إليه يقول في حديثه عن أبي الحسن على المصري "وله من الكتب كتاب المبسوط في الفقه ويحتوي هذا الكتاب كتاب الطهارة وكتاب الصلاة وكتاب الزكاة...!"

ولا يكتفي ابن النديم بأن يعرض في كتابه لقدماء المؤلفين بل ضمّنه مؤلفات معاصريه كذكره مؤلفات المرزباني الذي وُلد سنة (297) هـ، وقد كان ما يزال على قيد الحياة.

هذا وقد أصبحت (البيبليوغرافية) محل اهتمام العالم جميعاً واتخذت أساساً لجمع المعلومات عن الإنتاج الفكري الإنساني. وعُقدت المؤتمرات والأبحاث والدراسات حول (الضبط البيبليوغرافي العالمي) قام بها الاتحاد العالمي لجمعيات المكتبات (إفلا . IFLA) وأُحيلت إلى منظمة اليونسكو عام 1973 لتعمل على إبرازه إلى حيّز الوجود وقد أقامت اليونسكو فعلاً مكتباً خاصاً بالضبط البيبليوغرافي العالمي عام 1974.

ولابد أخيراً من التنبيه على الحلقة الدراسية العربية التي عُقدت في دمشق عام 1971 حول (الخدمات المكتبية والوراقة . أي البيبليوغرافية . والتوثيق والمخطوطات العربية). وقد أقام هذه الحلقة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية بالتعاون مع الحكومة السورية، وكان من توصياتها، كما جاء في نشرة الحلقة المطبوعة بمطبعة جامعة دمشق

1972:

1. أن تقوم الدول العربية التي لم تشرع بعد بإصدار بيبليوغرافية قومية بالمبادرة إلى إصدارها، وأن تقوم بهذه المهمة فيها المكتبة المسؤولة عن الإيداع، سواء أكانت دار الكتب الوطنية أم غيرها.
 2. توصي الحلقة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالعمل على إنشاء المركز البيبليوغرافي العربي، ليكون مركز تسجيل للمصنفات العربية.
 3. نظراً لأهمية البيبليوغرافية المتخصصة الموضوعة للبحث العلمي، توصي اللجنة بأن تهتم المكتبات والمراكز والهيئات العلمية في الوطن العربي بإصدار البيبليوغرافية الموضوعية في ميدان تخصصها.
- وقد بدا الأستاذ عبد العزيز محمد النهاري باحثاً محققاً، في مقاله الطريف الذي جعل عنوانه (البيبليوغرافية علم وفن).

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

مراجع البحث

1. العصور القديمة للدكتور براستد (جايمس هنري)، ترجمة الأستاذ داود قربان طُبع في المطبعة الأمريكية ببيروت سنة 1936.
2. تاريخ الكتاب للباحث الكرواتي (الكسندر شيبينشفنثش) ترجمة الأستاذ فاضل بوياري (من الكرواتية إلى الألبانية) والأستاذ محمد م. أرناؤوط (من الألبانية إلى العربية) سلسلة عالم المعرفة الكويتية.
3. مقال للدكتور أحمد داود في عدد التاسع عشر من نيسان سنة 1990 لصحيفة الثورة حول (جغرافيا الرحلة التوراتية لإبراهيم الخليل بين الحقيقة والتزوير).
4. مقال للأستاذ حسّان عزت في عدد الثلاثين من أيار عام 1992 لصحيفة الثورة حول (اللغة المصرية القديمة لغة عربية).
5. مقال للدكتور فهمي خشيم عميد مركز. اللغات الليبي، في العدد (57) من مجلة الشؤون العربية، حول اللغة المصرية واللغة العربية.
6. كتاب (مقدّمة في فقه اللغة العربية) للأستاذ لويس عوض، وقد صدر عام 1980.
7. مقال للدكتور جورج كنعان في عدد اليوم الرابع من كانون الثاني عام 1990، في صحيفة الثورة، حول علاقة التاريخ بظهور الكتابة.
8. كتاب (أبجدية جبيل) للعالم موريس دونان دار الكتب العلمية ببيروت 1945.
9. قصة الكتابة العربية، كتاب للأستاذ إبراهيم جمعة، أصدرته دار المعارف للطباعة والنشر بمصر سنة (1947).
10. مقدّمة كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر) لابن خلدون الجزء الأول، لجنة البيان العربي، القاهرة 1957 الطبعة الأولى.
11. فتوح البلدان للبلاذري (ت 279 هـ) دار الكتب العلمية ببيروت 1983.
12. مقال حول كتاب الفهرست لابن النديم، للأستاذ عبد الحميد حمودة، في العدد الثامن لمجلة الناشر العربي بطرابلس الليبية عام سبعة وثمانين وتسعمائة وألف.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

13. نشرة جامعة دمشق 1972، حول الحلقة إلى أقامتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية، بالتعاون مع الحكومة السورية.
14. مقال للأستاذ عبد العزيز النهاري حول (الببليوغرافية علم وفن) في العدد السابع من مجلة الفيصل السعودية، في عدد أيار وحزيران 1980.

عادل زعيتر وفن الترجمة (بمناسبة مرور 40 سنة على رحيله)

أ.د. يحيى جبر

رئيس مجمع اللغة العربية . بيت المقدس سابقاً
مؤسس الجمعية العلمية الفلسطينية
أستاذ علم اللغة بجامعة النجاح الوطنية

تمهيد:

عادل عمر زعيتر عالم عربي من فلسطين، ولد في مدينة نابلس عام 1897 في بيت علم ودين ورياسة، وتلقى علومه الأولى في مدارس نابلس وبيروت والآستانة، فتقّف العربية والتركية والانجليزية، والتحق عام 1916 بالجيش التركي، وما لبث أن التحق بالجيش العربي، وبينما هو في الطريق إذ ضلّت به القافلة، ولمّا نجا وصحبه نذر أن ينقطع لخدمة الأمة ورفعة شأنها.

مثل نابلس في المؤتمر السوري العربي الذي عقد عام 1920 وأُعلن فيه استقلال سورية الكبرى بحدودها الطبيعية، ولكن تغلب الانجليز والفرنسيين وهيمتهم على مقدرات الأمة جعله يدرك أن ما بالأمة من جهل هو السبب في تخلفها واحتلال أرضها، فقرر أن يلج باب العلم من جديد فاتجه إلى فرنسا حيث درس الحقوق، وتتلّمذ لفلاسفتها ومفكرها مباشرة، أو من خلال مؤلفاتهم، كما أتيح له أن يطلّع على آداب الشعوب الغربية، فوقف فيها على آفاق جديدة من المعرفة، فأغراه ذلك فيما بعد بترجمة روائع ما ألف في أوربة، إذ ترجم نحواً من أربعين كتاباً اختارها بدقة وعناية، وترجمها يوعي وإتقان.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

وقد كان لعادل زعيتر ذكر واسع في أرجاء الوطن العربي، ويتجلى ذلك في حفل تأبينه، إذ شارك فيه أعيان السياسة والعلوم والأدب في مصر وسورية والسعودية والعراق والأردن وفلسطين، ولا عجب في ذلك، إذ كان عضواً في مجمعي اللغة العربية بدمشق وبغداد، وكان يحج مصر كل شتاء، يشرف بنفسه على طبع كتبه.

ولم يؤلف زعيتر سوى بعض مقالات نشرت لها الصحف، وبعض أوراق في الحقوق عندما كان يعمل مدرساً في كلية الحقوق في بيت المقدس، ومما يؤثر عنه أنه قال، وقد سئل عن عدم اشتغاله بالتأليف: عندما أشعر أن مؤلفاتي ستكون على مستوى ما أترجمه من أعمال الأوروبيين فإنني سأفعل.

عمل في المحاماة زمناً، ورافع مدافعاً عن الثوار في محاكم الانجليز، ولكنه في أخريات سنيه (بعد سنة 1946) عكف على الترجمة، وكانت فرحته أكبر ما تكون يوم ينجز ترجمة كتاب. وقد جاء في رسالة وجهها لشقيقه أكرم في 19/2/1946. "يكاد قلبي يتحرق لأنني لم أقم بشيء مما تطمئن إليه نفسي في عالم العلم والسياسة، فتراني عازماً على تطبيق المحاماة وسلوك السبيل الذي كتبت لك عنه" يريد الانقطاع للترجمة.

وقد انتهج عادل زعيتر في ترجمته منهجاً واضحاً لم يحد عنه، واتسمت كل مترجماته بطابع خاص، وهو لو لم يترجم.. تلك المجلدات العديدة من أمهات الكتب.. واكتفى بترجمة كتاب حضارة العرب لجوستاف لويون وحده لكفاه ذلك فخراً وخلوداً، ويقيني أن خدمته للأمة العربية تفوق أضعافاً مضاعفة خدمات رجال السياسة والأدب من أبناء العروبة. (من برقية طه الهاشمي للجنة التأبين).

وكان عادل زعيتر قومي الهوى لا يعترف بالعصبية الوطنية والإقليمية، على نحو ما نجده في قول وديع فلسطين "وصفته ذات مرة بأنه الأديب النابلسي" فثار غضباً وأردت تصحيح ما وقعت فيه من خطأ، فقلت عنه إنه "الأديب الفلسطيني" فهاج وماج وأرعد وأزبد، وقال لي: إنني أديب عربي.. " (الرسالة بيروت 15/1/1958).

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

ذلكم هو عادل زعيتر، ونعرض فيما يلي لرأيه في فن الترجمة من خلال أعماله، وما قيل فيه.

غزارة إنتاجه:

كان عادل زعيتر يأخذ نفسه بالعزيمة، ويكلفها فوق طاقتها في ما يحملها عليه، فقد اتفق أن اعتراه الإجهاد فأشفى به على الموت غير مرة، ولكنه لم يكن يبالي، فأمامه غاية نبيلة بينه وبينها شأو بعيد، ولولا تلك النفس الماضية في إصرارها، الطموح في تطلعاتها، المحبة لأمتها، المخلصة لدينها وربها، لما أفلح عادل زعيتر في مهمته التي وقف نفسه عليها، ولما نجح في بناء ذلك الهرم من الكتب المترجمة.

فقد ترجم نحواً من أربعين كتاباً هي عيون ما صنفه الفرنسيون بخاصة والغربيون بعامة في مجالات الفكر والفلسفة والتاريخ والتربية، ويشير ذلك بوضوح تام إلى غزارة إنتاجه، ذلك الإنتاج الذي تعجز عنه المؤسسات العلمية المتخصصة لاسيما أنه أنجز في زمن يكاد يكون قياسياً، وبمستوى رفيع.

واليك ثبثاً بمترجماته مقرونة بسني نشرها، ومنها ما نشر بعد رحيله.

1. من مؤلفات جان جاك روسو:

أ. العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق الأساسية 1945.

ب. إميل أو التربية 1956.

ج. أصل التفاوت بين الناس 1945.

2. من مؤلفات جوستاف لوبون:

أ. حضارة العرب 1945.

ب. حضارة الهند 1948.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

- ج. روح الجماعات 1950.
- د. السنن النفسية لتطور الأمم 1950.
- هـ. فلسفة التاريخ 1954.
- و. روح التربية 1949.
- ز. حياة الحقائق 1949.
- ح. الآراء والمعتقدات 1946.
- ط. روح الثورات والثورة الفرنسية 1946.
- ي. روح الاشتراكية 1948.
- ك. روح السياسة 1947.
- ل. اليهود في تاريخ الحضارات 1945.
3. من مؤلفات اميل لودفيج:
- آ. النيل 1951.
- ب. البحر المتوسط 1951.
- ج. كليوباترا 1952.
- د. بسمارك 1952.
- هـ. نابليون 1946.
- و. ابن الإنسان 1947.
- ز. الحياة والحب 1959.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

4. من مؤلفات آرنست رينان:

آ. ابن رشد والرشدية 1957.

5. من مؤلفات فولتير:

آ. كنديد (التقاؤل) 1955.

ب. الرسائل الفلسفية 1959.

6. من مؤلفات أناتول فرانس:

آ. حديقة أبيقور 1955.

ب. الآلهة عطاش 1957.

7. من مؤلفات مونتسكيو:

آ. روح الشرائع 1953 بتكليف من اليونسكو.

8. من مؤلفات فنلون:

آ. تلماك 1957.

9. من مؤلفات حيدر بامات:

آ. مجالي الإسلام 1956.

10. من مؤلفات أميل درمنغم:

آ. حياة محمد 1956.

11. من مؤلفات سيديو:

آ. تاريخ العرب العام 1948.

12. من مؤلفات غاستون بوتول:

آ. ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية 1955.

13. من مؤلفات ايسمن:

آ. أصول الفقه الدستوري 1955.

14. من مؤلفات البارون كرادوفو:

آ. الغزالي 1959.

ب. ابن سينا 1959.

ج. مفكرو الإسلام 1959 ويقع في جزأين لم ينشرا.

وكان يخطط لترجمة عدد من الكتب نذكر منها: آخر ملوك بني سراج لشاتو بريان، وسيرة الأبطال لبلوتارك، وتدهور الغرب لشبينجلر والسلطة لبرتراند دوجوفنيل، وتاريخ الاندلس لبروفنال، لولا أن هذا تطلب مبلغاً كبيراً، وهو ذا الإنسان، لنيته، سنة 1938، ثم عدل عنه لمرضه. والمحمدية، والعبقريّة السّامية الآرية في الاسلام لكرادفو، والشهداء لشاتوبريان وتاريخ الاندلس لدوزي (ترجم فصلاً منه ثم عدل عنه) غير أن الأجل عاجله قبل أن ينهض بها، وظل بعض أعماله مخطوطاً لم ينشر بعد، وهي في مجال الحقوق، حقل تخصصه الأساسي.

"وكان عادل يرجو أن يختم حياته بتأليف تاريخ عام للعرب يكتبه بأسلوب علمي، وعلى ضوء النظريات الاجتماعية والفلسفية التي يعتنقها... على أنه كان واثقاً بأن الأدوات اللازمة لتحقيق أمنيته في تاريخ أمته لا تتوافر في نابلس، فكان يطمع في أن تتاح له سكنى القاهرة من أجل ذلك (أكرم تأبين 207)

اللغات التي ترجم عنها:

يعد عادل زعيتر في طليعة المترجمين العرب عن الفرنسية، من حيث عدد الكتب التي ترجمها، والموضوعات التي تناولها مؤلفو تلك الكتب فيها، وسلامة الترجمة، وقد كنا نتوقع من الدكتور حسام الخطيب أن يخص عادل زعيتر بكلمة توضح مكانته بين المترجمين العرب بعامة والفلسطينيين بخاصة. (انظر كتابه حركة الترجمة الفلسطينية، وبحثه "حركة الترجمة لدى أبناء فلسطين" العدد 11 سنة 1986 . المجلة العربية للثقافة . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ص 67).

وكان يتقن إلى جانب العربية كلا من اللغة التركية والفرنسية والانكليزية والألمانية، غير أن جل ترجماته كانت عن الفرنسية، وبعضها عن الألمانية.

"ان الثقافة العالية الرفيعة التي وصل إليها عادل زعيتر بجده وسهره ونشأته في المحيط الوطني المجاهد الذي عاش فيه. مع تمكنه من نواصي اللغات العربية والتركية والفرنسية والانجليزية... كل ذلك جعله يملك زمام موضوعه بهذه الأدوات العلمية التي قل أن يظفر بها أحد من المعاصرين، ويبز كل من يتعدى . فيتعدى . للترجمة ونقل علوم الأمم الغربية وتعريبها بمثل الدقة التي تمكن بها عادل من ترجمة وتدقيق أكثر من ثلاثين كتاباً ضخماً من أنفس وأروع ما وصل إليه العقل المعاصر من تفكير.. (محمد على الطاهر، مجلة الأديب، بيروت ك 1958/2).

نهجه في الترجمة

درج عادل زعيتر على منهج متميز في جل ترجماته، ويسهل على المطالع استظهار ذلك المنهج في الكتب التي ترجمها بشكل واضح، ويمكن ان نرصد أبرز معالمه في النقاط التالية:

. يعرّف زعيتر بمؤلف الكتاب المترجم بتقديم نبذة قصيرة عن حياته.

. يعقب ذلك تعريفه بالكتاب المترجم والدوافع التي حدث بمؤلفه إلى وضعه، وقد يطول ذلك فيأتي به كأنه يحكي حكاية.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

. ويردف ببيان الدوافع التي حملته على ترجمته، وهي تتضمن في الغالب الإشارة إلى حرصه على ألا تخلو المكتبة العربية من مثله، والاهتمام بنشر الوعي على طريق النهوض بالأمة. فقد جاء في تقديمه لكتاب بوتول عن ابن خلدون " وفي الكتاب يرى ما يعز وجوده عند غيره من النزاهة والاعتدال، فحملنا هذا على نقله إلى العربية رداً للتحية، وإطلاعاً على ما يحتويه من فوائد"

ومن الطرائف التي توقفنا على سبب ترجمته بعض الكتب ما حكاها لإخوانه عن سبب ترجمته لكتاب روح التربية لغوستاف لوبون على نحو ما رواه محمد على الطاهر في مقالته التي نشرتها الأديب البيروتية (كانون الثاني 1958) إذ جاء فيها:

"أما قصة عادل القديمة مع طه حسين كما حكاها لي عادل، فقد وقعت في باريس حوالي 1922 . 1924، وخلصتها أنه لما ظهرت ترجمة "روح التربية"، أخذها عادل مع بعض الطلاب العرب وذهبوا إلى مؤلفها الدكتور غوستاف لوبون، وكان شيخاً كبيراً، وطلب منه السماح له بترجمة كتابه الشهير " حضارة العرب" وقدم إليه ترجمة كتاب روح التربية معتزاً بالدكتور طه حسين (مترجمها) الأديب العربي، وكأنه يقول لغوستاف لوبون مباهاياً "انظر كيف إن كتبك تنقل إلى لغتنا".

ولما أمسك لوبون بالنسخة العربية، وفحصها ووزنها بيده، قال لهم: يظهر أن لغتكم مختزلة ومختصرة كثيراً، وإلا فهذا تلخيص لكتابي إذن، وهذا لا يجوز ولا يليق بأهل العلم. قال عادل: وخرجنا من عنده نتعثر بتلك (العلاقة التي أكلناها) بسبب الدكتور طه، ونوبت أن أترجم أنا في مستقبل الأيام كتاب "روح التربية" كما هو النص والأصل، ولكنني شغلت عنه بترجمة حضارة العرب وحضارات الهند والكتب الأخرى، فلما ظهرت ترجمتي لكتاب نابليون وانتقصها طه دون حق، متحيزاً لصديقه (محمود إبراهيم الدسوقي تلميذ طه حسين والذي ترجم الكتاب نفسه) فطنت إلى ما كان بالأمس البعيد، وقررت الانتقام منه.. وظهر كتاب "روح التربية" الضخم للدكتور غوستاف لوبون مترجماً بقلم عادل زعيتر في أكثر من 800 صفحة..".

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

وهذا يوضح أن السبب كان ثأراً، وتصحيحاً لترجمة مختزلة، ويقف المطالع ومُعلن النظر في موضوعات كتبه أن الرجل كان يترجم الكتب التي تعالج قضايا المجتمع وحركته، والتي بسط فيها آراء المتمردين على الظلم والمكافحين، وأصحاب المعاناة من المؤلفين، قال عادل الغضبان في تقديمه لآخر كتاب ترجمه عادل زعيتر، وهو الرسائل الفلسفية لفولتير (ط دار المعارف 1959): وكان آخر تلك الروائع هذا الكتاب الذي تصدى فيه مؤلفه لمحاربة الاستبداد في بلده على متباين صوره، فصادف موضوع الكتاب هو نفس فقيدنا المتألم لفلسطين المنكوبة الشهيدة، فنقله إلى العربية".

. وينتهي تقديمه ببعض الملحوظات التي تختلف من كتاب لآخر، كأن يحقق في نسبة الكتاب لصاحبه، "يقول في معرض تقديمه لكتاب العقد الاجتماعي لجان جاك روسو (دار المعارف 1954 ص15): "وفي سنة 1755 نشر روسو رسالة "الاقتصاد السياسي"، وهنالك شك في كونها وضعت قبل رسالة "أصل التفاوت" أو بعدها، فالذي يظهر أول وهلة كون رسالة "الاقتصاد السياسي" على نمط "العقد الاجتماعي" وهذا يدل على أنها ألّفت بعد "أصل التفاوت" ونحن نقول بدورنا: وهذا منهج من التحقيق دقيق تفرد به عادل زعيتر، ويقدم دليلاً على أمانته وتبحره.

وقد فعل مثل ذلك في تقديمه لكتاب فولتير "كنديد" أو التفاؤل (دار المعارف سنة 1955 ص 15 . 16) إذ قال: وكتاب كنديد مؤلف من جزأين، فأما الجزء الأول فيوجد إجماع على أنه وضع بقلم فولتير، وأما الجزء الثاني فقد ذهب كثير من النقاد إلى أنه من وضع كاتب آخر، ولذا يرى اقتصار بعض الطباعات وبعض الترجمات على الجزء الأول منه، كما يرى اشتغال طباعات أخرى وبعض ترجمات على الجزأين معاً، وذلك مع إشارة قسم منها إلى هذا الأمر، ومهما يكن من أمر فإن الجزء الثاني وضع على نحو الجزء الأول وروحه، ولا يكاد الناقد النفاذ يلمس فرقاً بينهما، وكيف يدرك هذا والجزء الثاني ينمّ على براعة ولباقة كالأول، وقد حفزنا هذا إلى ترجمة الجزء الثاني أيضاً إتماماً للفائدة وإمتاعاً للقارئ العربي".

قلت: وهذا يذكرنا بما كان من أمر الحمادين الثلاثة وغيرهم من منتحلي الشعر وناحليه

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

سواهم، إذ كانوا يأتون به على غرار الشعر الجاهلي، فلا يختلف في شيء إلا عند بعض النابهين. وكان من عادته . رحمه الله . أن يقرأ كثيراً في موضوع الكتاب الذي يتصدى لترجمته، وذلك شأن العلماء، كيما تستحكم له الصنعة، ويلم بأطراف الموضوع. قال في تقديمه لكتاب غاستون بوتول "ابن خلدون . فلسفته الاجتماعية" .. ألفه سنة 1930، وقد قرأناه، غير مرة، فوجدناه ينطوي على عناية عظيمة بابن خلدون..."

ولم يكن عادل يقرأ وحسب، ولكنه كان يسأل أهل الاختصاص دون أن يجد في ذلك حرجاً، فهو يعلم أن المعرفة لا تكتمل لإنسان، ويتضح ذلك في بعض شهادات نورها في ما يلي:

1. عندما ترجم كتاب حضارات الهند بعث إلى أصدقائه في الهند يستفتيهم في نطق الأسماء الأدبية، فجاء النطق الصواب الذي التزم في السفر جميعاً مثل بدهة بدلاً من بوزا، وهمالية بدلاً من هيمالايا، ودلهي بدلاً من دلهي (وديع فلسطين . الرسالة . بيروت 1/15/1958).

2. عندما ترجم كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لسيديو، عرض له فيه طرف من تاريخ القبط في مصر فأراد أن يتحرى بعض حقائق ذلك التاريخ، فاستعان بوديع فلسطين في الظفر بكتاب عن تاريخ الكنيسة القبطية لجلاء حقيقة الأمر (المصدر السابق نفسه).

3. استعان في ترجمة كتاب النيل لأميل لودفيغ بوديع فلسطين ليدله على أسماء أصناف قديمة من القطن المصري، فاستعان وديع بالدكتور يوسف نحاس للغرض نفسه، واستعان بوديع في معرفة نص أغنية دارجة كان أبناء النوبة يرددونها، لأن أميل لودفيغ ترجمها في كتابه، وكان عادل حريصاً على إدراجها في ترجمته الضادية بنصها الشائع. (المصدر السابق نفسه).

4. كان عادل يحرص على إيراد النصوص الأصلية للمقتبسات ويبدل في هذا جهوداً عظيمة وقد يقضي أياماً في البحث عن نص أصلي، وتحقيق حادث أو اسم، ولا يفتأ يكاذب الثقة والمختصين في مواطنهم، فيتصل بالعلامة الهندي المرحوم عبد الرحمن صديقي للاتفاق على الصور الصحيحة لكتابة الأسماء الهندية. ويكاذب العلامة الأب قنواي الدومينكاني

ليتحقق صحة بعض الأسماء، ويكون صديقه الأستاذ شوقي أمين (أستاذنا رحمه الله) واسطة الوقوف من ناحوم أفندي عضو المجمع اللغوي على صحة بعض أسماء فلاسفة اليهود في اسبانية، ويكتب الأستاذ أحمد شاعر لتحقيق أحاديث نبوية، ويتصل بأئمة الأديان لتحقيق نصوص فقهية، ويزور الأديرة والكنائس... ويزور سفير إيران بالقاهرة لتحقيق لفظة فارسية.. وما أكثر ما كان يشتري من الكتاب الواحد طبقات متعددة ليلحظ التفاوت بين تلك الطبقات (من ذكريات أكرم زعير . كتاب التأبين ص 204 ، 205).

. كما كان يقف عند حد النص، ويتفاه حرفاً بحرف، وبهذا الصدد يقول في مقدمته لكتاب أميل لودفيغ "الحياة والحب" ط دار المعارف 1959 ص7.. وهذا ما أردنا جلاءه بالصقل جهد المستطيع مع المحافظة على حرفية الترجمة".

ويقول وديع فلسطين بهذا الصدد (الرسالة ، بيروت 1958/1/15) وهو في الترجمة حرفي لا يتصرف ما لم تكن هناك ضرورة لا مفر منها، ولكنه يطبع أسلوبه بطابع عربي بالغ الابانة، لا يتأتى إلا للبلغاء المحققين في اللغة، ولا يسهل فهمه إن كان القارئ عجلان أو ناقص الثقافة وكان يقول دائماً أن بغيته العليا في الترجمة أن يحاكي الأصل الإفرنجي متانة أسلوب وروعة أداء ودقة تحرٍ وسلامة من العيوب".

وكانت هذه واحدة من خصال عادل زعير، إذ كتبت جريدة الاثنين القاهرية في 1958/3/24 ما نصه: وعادل زعير واحد من القليلين الذين حافظوا في نقل كتب الغرب إلى لغة العرب، على حرفية الترجمة دون أن يمسوا المعنى أو يشوهوه أو ينقلوه ناقصاً أو زائداً.. وعادل زعير واحد من الذين اثبتوا أن التوفيق بين الترجمة الحرفية وصيانة المعنى أمر ممكن، بخلاف ما يدعي "العاجزون" عن تحقيق هذه المعجزة، فالذين لم يحققوا هذا من المترجمين كانوا يبحثون عن العمل السهل، ويستعجلون الريح المادي، ويتسابقون مع الوقت فيسلقون الترجمة كما يسلقون البيض".

وكان من دقته يشرف على طبع كتبه بنفسه (انظر مقدمة أكرم . شقيقه . لترجمته لكتاب

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

البارون كارادوفو "الغزالي" ولم يكن ليتجاوز خطأ في الكتاب دون تصحيحه ولو بإلحاق ثبت بالكتاب يرصد فيه الأخطاء وتصويباتها. ويتضح ذلك في ما كتبه الأديب العربي الكبير وديع فلسطين بعنوان (عادل زعيتر . تعريب مؤلفات الغرب . جريدة الحياة . لندن، 24 شباط 1995) إذ قال: وعندما طبعت له دار المعارف كتاب "البحر المتوسط" لامييل لودفيغ اكتشف بعد مراجعة تجاربه عدة مرات وقوع أخطاء مطبعية يسيرة، وفي وسع القارئ أن يستدركها دون عناء، لكن عادلاً غضب أشد الغضب، وأصر على أن يذيل الكتاب بلاتحة بهذه الاغاليط، في حين أصر شفيق متري صاحب الدار على رفض إدراج هذه اللاتحة قائلاً: إن الدار عرفت بدقتها، ولا نريد أن نسيء إلى سمعتها بإدراج لاتحة فيها اعتراف بوجود أخطاء مطبعية في كتبها، وأصر كل طرف على رأيه، وعندئذ أبدى عادل زعيتر استعداده للإقرار بمسؤوليته عن هذه الأخطاء، والاعتذار لدار المعارف، وعلى هذا ذيل الكتاب بلاتحة التصويبات مع عبارة نصها "ظهرت الأغاليط القليلة الآتية تصويباتها في هذا الكتاب الضخم (وقوامه 905 صفحة) الذي طبع بإشرافي في خمسة أسابيع، فأنشر هذه التصويبات مع الاعتذار لدار المعارف التي أسجل لها شكري"، لقد كان كل من الطرفين حريصاً على الكمال، فجاءت هذه العبارة لتسجل ذلك".

. وكان لفرط تدقيقه، وحرصه على إخراج الترجمة في أبهى صورة وأدق معنى . يطالع الكتاب الذي يتصدى لترجمته في أكثر من لغة، إن كان مما ترجم إلى غير لغته الأصلية، فقد أعتمد في ترجمته الكتاب السابق للودفيغ على أصله الانجليزي وترجمته الفرنسية وقد نرى مرد ذلك إلى أنه يتقن الفرنسية أكثر، وفي الاطلاع على المعنى بلغتين إسعاف وتمكين من الترجمة بشكل دقيق.

. ولعادل زعيتر مذهب في الترجمة إذ يرى جواز الترجمة عن ترجمة أخرى إلى غير لغة الكاتب الأصلي، ويرى أن الترجمة عن الأصل، أولى عندما يكون الموضوع علمياً، توخياً للدقة ونقل المعنى الصحيح للاصطلاحات. وفي هذا الصدد ننقل ما أورده صاحب المقال السابق، وقد أورد أحوالاً أدت زعيتر إلى إظهار سخطه وتبرمه، فقال "ومرة ثالثة انفجر في عادل زعيتر عندما كتبت كلمة عن ترجمتين لكتاب "تابليون" لامييل لودفيغ اتفق صدورهما في وقت واحد:

ترجمة عادل زعيتر المنقولة عن النص الفرنسي مع الاسترشاد بالترجمة التركية لأنه كان يجيد هاتين اللغتين، وترجمة محمود إبراهيم الدسوقي المنقولة عن النص الألماني، وهو النص الأصلي للكتاب، وانتهيت في كلمتي إلى أن النقل المباشر عن لغة الكاتب الأصلي أدق من النقل غير المباشر عن لغة أخرى ترجم إليها الكتاب، ولم يوافقني عادل زعيتر على هذا الرأي قائلاً: إن الكتب الأدبية يجوز ترجمتها من نص مترجم، أما الكتب العلمية أو الفنية فيحسن أن تترجم عن النص الأصلي للتوثق من الترجمة الدقيقة للمصطلحات والتعابير، وكتاب نابليون هو كتاب أدبي في المقام الأول.

قلت: نوافق وديع فلسطين، ونخالف المرحوم زعيتر، إذ ربما كانت ترجمة النصوص العلمية عن لغتها الأصلية أو عن لغات أخرى ترجمت إليها . أكثر تقبلاً وأدق، لأن العلم واحدة معانيه ومفهوماته ونظرياته في كل اللغات والبلدان، على العكس من لغة الأدب . ومن مظاهر الدقة في ترجمات عادل زعيتر . رحمه الله . أنه كان يضبط الألفاظ بالشكل الدقيق، لاسيما الألفاظ العلمية التي تحتل غير وجه واحد، والغريبة التي يستتبطها من معجمه وسنزين البحث بنماذج من ترجماته توضح ذلك.

وقد اعتمدت اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية المنبثقة عن اليونيسكو ترجمات عادل زعيتر وأجازتها، وكانت تكلف من يراجعها والنظر فيها، وقد نجد إشارة إلى ذلك على بعض الكتب ككتاب العقد الاجتماعي لجان جاك روسو، إذ حمل الكتاب اسم اللجنة، وعلى صفحته الداخلية عبارة "قرأ هذه الترجمة وفق أحكام منظمة الاونسكو: توفيق الصباغ، كمال الحاج" وانظر كلمة الدكتور مصطفى جواد: كلمة المجمع العلمي العراقي، كتاب التأبين ص 26.

وكتب محمد عبد الغني حسن (بريد المطبوعات الحديثة . مصر، ديسمبر كانون الأول 1957) مقالة بعنوان عادل زعيتر جاء فيها: وكان لدى عادل دقة في الترجمة، إلا ما تحدثه الترجمة عن لغة ثانية من فروق . كما كان لديه أصالة في التعبير، وفحولة في التركيب، وضلاعة في اللغة وميل إلى إحياء اللفظة الغريبة لا استكراها في جلبها ولكن إشاعة لاستعمالها.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

وجاء في نعي مجمع اللغة العربية بدمشق له (مجلة المجمع عد 33 سنة 1977 ص 66) ما نصه: كان الفقيد في طليعة المترجمين، أميناً في نقله سليماً في أسلوب إنشائه". وسيقف المطالع في مترجماته على هذه الحقيقة بسهولة ويسر. ونشرت مجلة الحياة البيروتية (1957/1/12) مقالة بعنوان "أكبر المنتجين العرب" تعني عادلاً، جاء فيها "ولغته في الترجمة هي النقية العالية الطبقة، وقد رسخت قدمه في هذا الفن رسوخاً يجعل القارئ يؤمن بأنه إنما يقرأ عبارة عربية كأنها خلقت عربية، ولم تنقل ترجمة بحال.. وكثيراً ما رأينا أن فرداً من الكتاب تخير لفظاً أو مصطلحاً فوق فيه أكثر مما يوفق المجمع العلمي بأسره، وأحياناً يثبت في الحاشية اللفظة الأجنبية التي أتاك بتعريب مختار لها" قلت: وهذا منهج غدا اليوم متبعاً على نطاق واسع، ومطلب يقتضيه البحث العلمي، أي أن يثبت الاصطلاح الأعجمي إلى جانب الاصطلاح العربي المترجم أو موازياً له في الهامش، إمعاناً في الدقة والاحتياط.

ومن شأنه رحمه الله أنه كان يتخير فصيح الألفاظ لا رغبة في التقعر ولا تحذلقاً، ولكن إحياء لتلك الألفاظ وإدراجها لها على الأقلام، لأن الألفاظ تتأبد ما لم تؤنسها الألسن بتداولها، والأذان باستماعها.

وفي هذا الصدد يقول عبد الله المشنوق في مقالة بعنوان "الوسيط الأول" نشرتها بيروت المساء (بيروت 12 كانون الأول سنة 1957): "ولم تعرف العربية مدققاً في اختيار الألفاظ الفصيحة كالمرحوم عادل زعيتر... وقد حدثني شقيقه الأستاذ الكبير أكرم زعيتر . رحمه الله . عن غلطة اكتشفها أكرم في إحدى ترجمات عادل إذ استعمل عادل كلمة الماس . الجوهر الثمين المشهور معرّفاً مرتين بالألف واللام (الألماس) فكتب له يقول: الصواب أن تقول الماس، ويعد عام النقا على الهاتف وكان أولى كلماته لأخيه أكرم بعد تبادل السلامات: الصحيح الألماس، وأنا على صواب.. والحقيقة إن عادلاً هو المصيب".

وفي هذا المعنى قال مصطفى جواد ممثل المجمع العلمي العراقي يؤبّنه في أربعينه (كتاب التأبين ص 126): "ولقد كان . رحمه الله . ينتقي الكلمات العربية انتقاءً ليعبر بها عن كلمات

فرنسية يعز على غيره الاهتداء إلى ما يقابلها في العربية حق المقابلة، إنه كان مَدًّا لإخصاب اللغة العربية، ولكن هذا المَدَّ قد انقطع" وجاء في ذكريات شقيقه المرحوم أكرم (كتاب التأبين ص 205) أنه كان يدخل في ما يكتب كلمات غير مألوفة، ولكنها ليست نابية، وهي تأتيه عفواً من دون تكلف وكان هذا مثار جدل بينه وبين بعض أصدقائه من الأدباء والعلماء، وأن صديقه الأستاذ نصوص الأيوبي كتب إليه من دمشق مثنيًا على أحد كتبه، وقد اعترض على إيراد في الكتاب كلمة "الخُنزوانة"¹ بمعنى الكبر، وداعبه قائلاً: "وليس من المفجع يا سيدي أن تموت كلمة الخُنزوانة . من اللغة العربية" فتلقى عادل تلك الدعابة ضاحكاً وأجابه بضرورة تطعيم اللغة بكلمات على إلا تكون نابية. ومما قاله إن كلمة عنجية تفيد المعنى ذاته، ولم تكن تستعمل حتى ردها الأمير شكيب أرسلان فغدت مألوفة سائغة" قلت: ولعل هذا التعليق الشديد بالعربية، والحرص عليها هو القاسم المشترك بين كل من زعيتر وأرسلان الذي أغرى محمد على الطاهر بمقالته التي نشرتها له الأديب البيروتية (عدد كانون الثاني 1958) بعنوان "الشبه بين عادل وشكيب".

ويتوالى شريط الذكريات، فيقول أكرم (ص 206) كان عادل يحرص على صحة لغته حديثاً وكتابة، ويُعنى بشكل كثير من الكلمات التي يحتمل الالتباس في صحة لفظها، فكم من فائدة لغوية يجتنبها قارئ كتبه، وقد تعلمت منه مثلاً أن أقول "المُتحف" بضم الميم لا بفتحها، لأنها مشتقة من أتحف لا من تحف... .

ومن الشهادات التي تؤكد مذهب عادل زعيتر في تخير ألفاظه ولو كانت من الغريب ما نشرته مجلة الثقافة في عدديها الصادرين في 1948/3/2، 1948/4/20 من نقاش بين الدكتور أحمد فؤاد الاهواني أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة آنذاك، وعادل زعيتر بعد صدور ترجمته لكتاب حضارات الهند، إذ كتب الاهواني "إن المترجم في سبيل الارتقاء بالأسلوب جعل ينقب عن الألفاظ الغريبة يضعها في مكان الألفاظ الفرنسية كاتخاذ كلمة "العرق" بدلا من الجنس،

¹ انظر تحقيقنا لكتاب العثرات في غريب اللغة لأبي عمر الزاهد ط عمان 1984 ص 86 وه 14 ص 87.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

وكاتخاذ كلمة "شماريخ الجبال" بدلا من رؤوس الجبال" ... ويرد عادل رد لغوي أديب، يصدر عن قلب مفعم بحب اللغة والحرص عليها، ويتمثل رده في:

1. إن ما ورد من غريب لم يأت تكلفاً وإنما جاء عفواً.
2. إن إدراج هذا الغريب مفيد نافع لما يؤدي إليه من تطعيم اللغة الدارجة والنهوض بها..
3. أنه لا يضير كتاباً ضخماً كحضارات الهند أن يشتمل على بضعة ألفاظ من هذا النوع لاسيما أنه كتاب أدب.

4. إن هذه الألفاظ ليست نابية، وقد استخدم إلى جانب الشماريخ الرؤوس والذرا، ولكنه يرى أن "شماريخ" في موقعها الذي استخدمت فيه "أوقع في النفس من كلمة رؤوس" ويؤكد وديع فلسطين ذلك المنحى في ترجمات عادل زعيتر (الحياة . لندن، 24 شباط 1995) قائلاً: كان عادل زعيتر يتأنق في ترجماته تأتقاً شديداً، وصفه بعض نقاده بالنقعر والتفاح إذ لم يكن يستخدم اللفظة السهلة القريبة المنال، بل كان يؤثر عليها اللفظة المعجمية غير الدارجة ثم يشرحها في هامش الصفحة، ومن ذلك مثلاً قوله: إن زيدا من الناس تزوج فتاة صغيرة بعدما "أم" ويشير في هامش الصفحة إلى أن (أم الرجل يُنيم أَيْماً) من زوجته فقدها. وكان يصف الصورة التي تعبد بالنصمة، ويترجم لفظة Puritain بالحنبلي، في حين يرى ناقده إن الحنابلة فرقة إسلامية، أما البيوريتان فهم فرقة مسيحية¹... وهو يستخدم عبارة "كردح الحمار" ثم يشرحها في الهامش بقوله: إن كردح تعني إن الحمار عدا عدواً قصيراً.. ومن هذا القبيل استخدامه لعبارة "ارتعج البرق" بمعنى تتابع البرق، واستخدامه كلمة الاضوار بمعنى السحب السود، والطاخية بمعنى الظلمة الشديدة، والأضواج بمعنى منعطفات الوادي، والحرائج بمعنى الطرق الضيقة، واستغدر المكان بمعنى صار فيه غدران، والجنول بمعنى الأصول الباقية للأشجار بعد ذهاب فروعها، والثول بمعنى الحماقة.. وهلم جرا، ورأى النقاد أن هذه

¹ في اللهجات الدارجة في بلاد الشام بكثرة استخدام كلمة حنبلي للمتشدد، لما عرف عن الإمام أحمد بن حنبل من تشدده.

الهوامش، اقتضاها تقعره في اللغة دون مسوغ.

قلت: إن من هذه الألفاظ ما يستخدم في اللهجات الدارجة في جنوب الجزيرة العربية إلى اليوم، وما هي بالعربية إلا عند من تغرب عن أرومته وصدف عن نهج الأصالة.

وعادل زعيتر عروبي الهوى والنزعة، يترجم روائع الأدب والفكر العالميين ليسد ثغرة في المكتبة العربية، وليقدم للقارئ العربي تلك الروائع لتسهم في صقل فكره، وحفره على المضي قدماً على طريق الرقي والتحضر، ومن هنا كان يعف عن ترجمة الكتب الهزيلة، التي تدر مالا كثيراً على مترجميها، لأنه لم يكن طالب مال ولا جاه، وإنما كان يتحرق لما آل إليه أمر الأمة، وهو بذلك قد رد للترجمة اعتبارها، وهذا هو عنوان مقالة الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنات الشاطئ) في تأيينه، والتي جاء فيها (كتاب التأيين ص 119، 120) "وكم حاول بعض الناشرين أن يرموه بالنزول عن مستواه ليكسب مزيداً من القراء، لكن المحاولة ضاعت سدى، وبقي حيث هو مصعداً، وكما عصي قلمه على الأسفاف والهبوط، عصي منهجه في اختيار المترجمات على الانحراف والزيغ والضلال، فأبى أن يستجيب لتجار التموين العقلي، أو يأجر قلمه لمن أرادوا أن يجعلوا الترجمة أداة غزو مقنع، يدمر معنوياتنا، ويسمّ عقولنا ووجداننا، كما أبى أن يتملق أهواء العوام وميول المراهقين، ولم يحد قط عما رسمه لنفسه من نهج كريم الهدف، نبيل المقصد، رفيع المستوى. فما نقل أثراً لكاتب غربي إلا بعد أن اطمأن إلى جدواه على قومه العرب، ولا اهتم بمفكر عربي إلا إذا رآه أهلاً لأن يهتم بمثله.

ومما يؤكد ترفعه ونزاهته أنه ترجم فصولاً من كتاب "الاعترافات" لجان جاك روسو، ثم كف عن الترجمة لأن مزاجه لا يسيغ أن ينقل قلمه الاعترافات المكشوفة (كتاب التأيين ص 209). ويؤكد أكرم زعيتر شقيق عادل . رحمهما الله . أن عادلاً كتب إليه في 1953/8/10 يقول: أخذت في ترجمة "هو ذا الإنسان" لنيتشه، وبعد أن قطعت شوطاً بعيداً في أسبوع، أصبت بمرض الروماتزم في ظهري، فأقعدني عن العمل، وطرحني في الفراش، ثم شفيت منه منذ يومين، فرأيت ألا استأنف العمل في ذات الكتاب لإفراط المؤلف في اللادينية، وتهجمه على الأنبياء، وحملته

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

الشديدة على المبادئ الإنسانية، أي، لأمر لا أقر نيتشه عليها لا في قليل ولا في كثير.
(المصدر السابق ص 209).

وهذا يبرز بجلاء ووضوح أن عادل زعير كان يتوخى النزاهة والاستقامة ويأخذ بأسباب الأدب في اختيار مترجماته، لأن حرصه إنما كان على تزويد المكتبة العربية بأهميات الأسفار التي ضمنها مفكرو الغرب آراءهم ومعارفهم التي تبلورت في أعقاب مخاضات عسيرة مرت بها ديارهم، وكانت مشاغل أضاعت دروبهم في اتجاه الحضارة التي تنعم بها أوربية اليوم لو لم تكن مادية وحسب. وقد أكد هذه الحقيقة محمود سيف الدين الإيراني في مقالته التي نشرتها له جريدة الدفاع المقدسية في 14/3/1958 إذ قال "وإنه ليبدو لي أن عادل زعير ما نقل كتاباً إلا بعد أناة وتدبر وتساؤل طويل عن فائدته وقيمه وعن مدى انتفاعنا به، وما يمكن أن يضيفه إلى ثقافتنا من رفق ومدة، حتى إذا رجع الكتاب في كفة البحث والتمحيص والتحقيق والنظر السديد في قيمته وفائدته أكب على ترجمته.. فيجاء النقل على هذا النسق الرفيع من الإحكام والدقة والأمانة والبلاغة المعجزة.

وخلاصة هذا البحث يمكن القول إن عادل زعير قدم للقراء خلاصة الفكر الغربي ممثلاً في عيون المراجع التي ترجمها لأعلام المفكرين والكتاب الغربيين، وبذلك يكون قد جمع بين الكم والكيف. وقد أغنى ذلك المكتبة العربية وأمدّها بتلك الروائع، وفتح باباً على الثقافة الغربية الرصينة. ولم يكن عادل حاطب ليل، بل كان ينتقي ويختار، ولم يكن يتعجل أمره، بل كان يتأنى في عمله، ويحكمه كما أنه لم يكن طالب شهرة ولا مال ولا مجد رخيص، إذ كان يتعفف عن ذلك كله، ويأخذ نفسه بالعزيمة، يشهد له بذلك كل من عرفه إلا أولئك الذين رأوا في عمله تعرية لنكوصهم وتقصيرهم.

وكان أميناً في عمله، ويعتني به اعتناء منقطع النظير، وهو يصدر في كل ما قدمه عن عروبة فاعلة تحترم في وجدانه، وغيرة على أمته وتراثها قل أن نجدهما عند غيره.

عروض للجدید
من الكتب والرسائل الجامعية

فن البحث العلمي

كتاب صادر عن "دار اقرأ" في بيروت

تأليف : و. ا. ب. بفردج

ترجمة: الأستاذ زكريا فهمي

من الكتب القيمة في مجالات البحث العلمي كتاب "فن البحث العلمي" لمؤلفه و. ا. ب. بفردج من جامعة كمبريدج، وقد قام بترجمته إلى العربية الأستاذ زكريا فهمي، وراجع الترجمة الدكتور أحمد مصطفى أحمد. وصدر الكتاب في عدة طبعات عن "دار اقرأ" في بيروت. يقع الكتاب في 287 صفحة وفي أحد عشر فصلاً إضافة إلى مقدمة وتذييل وثبت بالمراجع وقائمة بأبجدية المصطلحات العلمية.

يتضمن الفصل الأول إعداد البحث العلمي وضرورة قراءة كل ما يتعلق به قراءة ناقدة، فللقراءة غير الناقدة تأثير مراهض للأصالة والابتكار. وعلى الباحث أن يحدد مشكلة بحثه وينقب عن الأبحاث التي أجريت عليها من قبل، ويجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات المباشرة عن المشكلة.

ويشتمل الفصل الثاني على التجربة، والتجربة الضابطة هي أساس أغلب التجارب البيولوجية. ومن الأمور الهامة عند تنفيذ التجربة الانتباه الدقيق إلى التفاصيل، والعناية بتدوين المذكرات، وتوخي الموضوعية عند قراءة النتائج. ويختص الإحصاء البيولوجي بتصميم التجارب فضلاً عن تفسير النتائج. والتجريب مثله مثل وسائل البحث الأخرى ليس معصوماً عن الخطأ. وعدم القدرة على إثبات فرض بالطريقة التجريبية ليس دليلاً على خطئه.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

ويتحدث الفصل الثالث عن الصدفة ودورها في اكتشاف الحلول، إذ غالباً ما تنشأ المعرفة الجديدة من مشاهدة غير متوقعة على الإطلاق، أو مصادفة عارضة في أثناء البحث. وينبغي للباحث تقدير أهمية هذا العامل في الكشف إلى أقصى حد واستغلاله بصبر وأناة. ومثل هذه الفرص تتاح أكثر للمشغلين في معاملهم بنشاط، ولمن يحاولون تجريب طرائق جديدة في البحث. ويحتاج تفسير الدليل وإدراك مدى أهميته إلى توافر المعرفة مع عدم وجود أفكار جامدة، كما يقتضي مقدرة على التخيل وذوقاً علمياً واعتيادياً على تأمل جميع المشاهدات غير المفسرة والتفكير فيها.

ويبحث الفصل الرابع في وضع الفروض، فالفرض هو الأداة الذهنية الرئيسة في الأبحاث، مهمته فتح الطريق أمام تجارب ومشاهدات جديدة، إذ ينبغي للباحث أن يتوخى النزاهة الصارمة في الحكم على فرضه، وألا يعمد إلى إخفاء النتائج المخالفة لفرضه، فالعالم يحتاج إلى اليقظة والحذر، حتى يحول دون تحيزه لصالح فرضه في مشاهداته وتفسيراته.

واشتمل الفصل الخامس على الخيال ودوره في التفكير المنتج، وأوضح الفصل سلبيات التفكير المقيد. وثمة طريقتان لتخليص الفكر من التقيد، وهما التخلي وقتياً عن التفكير في المشكلة والمناقشة، إذ كثيراً ما يساعد النقاش على التفكير المنتج، والحافز المبدئي على التفكير المنتج هو إدراك صعوبة ما.

أما موضوع الحدس في البحث العلمي فتضمنه الفصل السادس، إذ تم الحديث فيه عن التتقيب عن الحدس واقتناصه وعن الذوق العلمي. وتستعمل كلمة "الحدس" للدلالة على الفكرة الموضحة التي تطرأ فجأة على الذهن. وأكثر الظروف ملائمة لظهور الحدس هي:

- . تهيئة الذهن أولاً عن طريق التفكير الواعي في المشكلة لفترة طويلة.
- . المشكلات والمشاكل والمنافسة في اهتمام الذهن لها تأثير معاد للحدس.
- . التحرر من عوامل الإزعاج التي تقطع حبل التفكير وتسبب شرود الذهن.
- . غالباً ما تظهر الحدوس عندما لا يكون المرء منشغلاً بالمشكلة.

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

. من المنبهات الايجابية للحدس الاتصالات الذهنية بالآخرين كما يحدث عند المناقشة أو القراءة الناقدة أو الكتابة.

. وكثيراً ما تختفي الأفكار الطارئة على ذهن إلى غير رجعة وبالسعة نفسها التي تأتي بها. ولذلك ينبغي اقتناصها بالكتابة.

. إضافة إلى المغالطات والقلق والمشكلات المنافسة ثمة مؤثرات أخرى غير ملائمة وهي الإجهاد الذهني والجسمي والإفراط في العمل المستمر في المشكلة والمثيرات التافهة وأنواع الضوضاء المشتتة للذهن.

وعرض الفصل السابع للعقل ودوره في البحث العلمي وقيود العقل وأخطارها إذ من أهم العقبات التي تعترض طريق التقدم العلمي ذلك التحليل الذي قدمه المنطق لطرق البحث العلمي، فكما ازداد إذعان العلماء للمنطق كان ذلك مؤدياً إلى الحط من القيمة العلمية لاستدلّالهم. ويقول العالم الرياضي "بواغاريه": ليس للمنطق إلا شأن ضئيل جداً بالكشف أو الاختراع. وأشار الفصل إلى بعض الاحتياجات اللازمة عند استخدام العقل في البحث.

ويشتمل الفصل الثامن على الملاحظة ودورها في البحث العلمي والملاحظة الدقيقة أمر صعب للغاية، ولذلك يقع القائمون بالملاحظة عادة في أخطاء عديدة بغير وعي منهم. تتضمن الملاحظة الفعالة مراقبة شيء ما، وتقدير أهميته بإرجاعه إلى شيء آخر ملاحظ أو معروف من قبل، ولذلك فهي تشتمل على عنصرين في آن واحد: الإدراك الحسي والعنصر الذهني.

ومن المستحيل ملاحظة كل شيء. وعلى الملاحظ تركيز أغلب اهتمامه في مجال معين، وعليه أن يحاول التنبيه إلى الأشياء الأخرى لاسيما ما كان منها شاذاً.

ويتضمن الفصل التاسع الصعوبات التي تحدث في أثناء البحث من حيث المقاومة الذهنية للأفكار الجديدة ومعارضة الكشف وأخطاء التفسير.

ويبحث الفصل العاشر في تخطيط الأبحاث وتنظيمها وأنواع البحوث التطبيقية والبحثية. ويشير إلى ضرورة وضع الخطط التفصيلية للبحث، وثمة إشارات إلى أفضل الطرائق لممارسة

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

أوجه النشاط المختلفة التي يتألف منها البحث. والخطة العامة الواجب إتباعها في البحث هي العمل سعياً وراء هدف معين مع التيقظ لأي فرص غير متوقعة واغتنامها.

أما الفصل الحادي عشر فيبحث في الصفات اللازمة للبحث العلمي وأخلاقيات البحث العلمي والأنواع المختلفة للأذهان العلمية، ويؤكد أن حب الاستطلاع والتثقف بالعلم هما من أهم الشروط الذهنية اللازمة للبحث، وربما كان الحافز الرئيس للبحث هو الرغبة في كسب تقدير الزملاء واحترامهم. أما الجزء الأكبر فهو نشوة الكشف التي يعدها الكثيرون من أعظم المتع التي يمكن أن تجود بها الحياة.

إن كتاب "فن البحث العلمي" لا غنى عنه لأي باحث نظراً لغنى مضمونه وكثرة شواهد ووضوح أسلوبه وسلامة لغته وعظم الفوائد التي يجنيها القارئ من اطلاعه عليه.

قدم العرض

رئيس التحرير